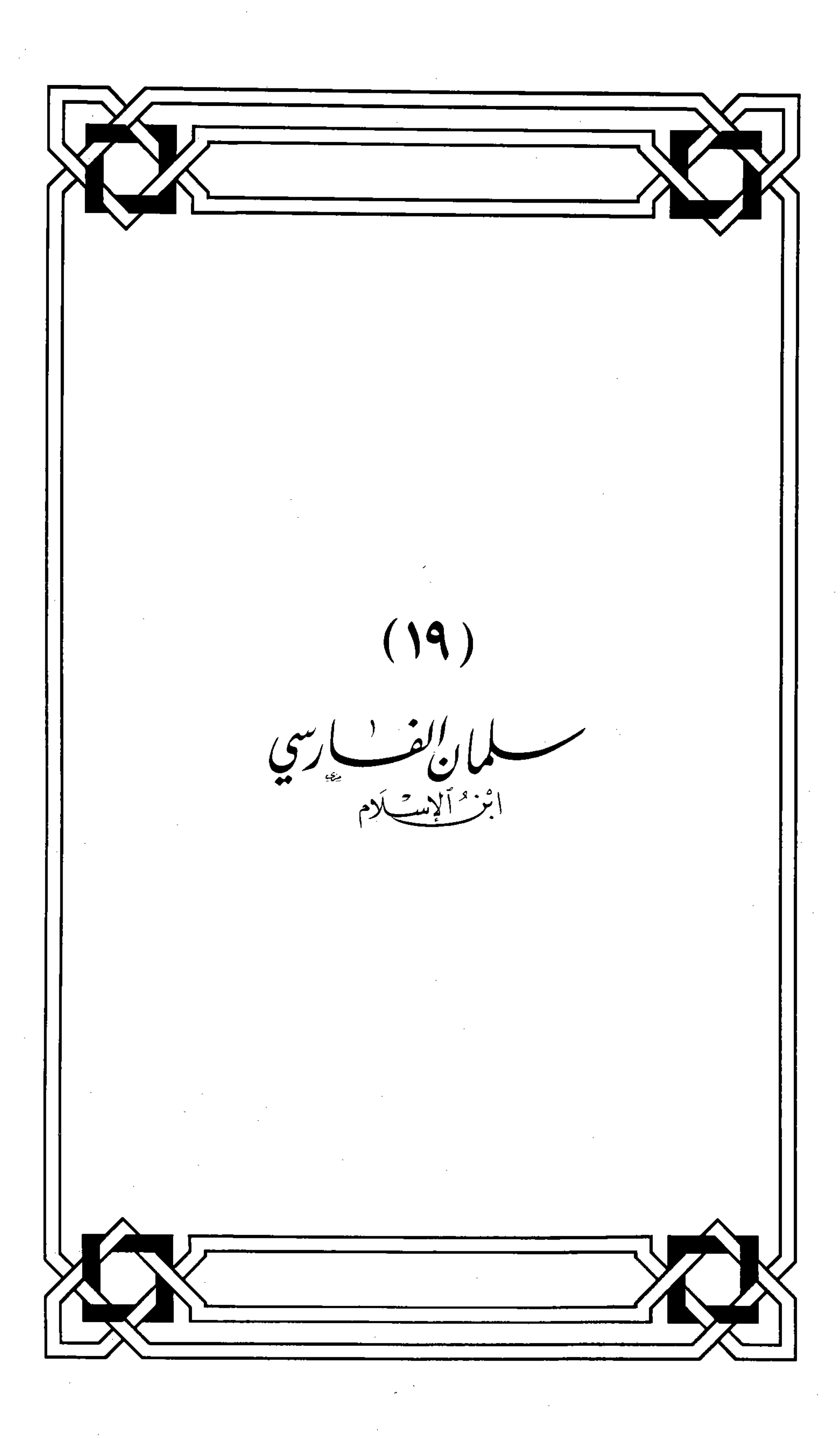


(١٩)

سلمان الفارسي رضي الله عنه

ابن الإسلام



بسم الله الرحمن الرحيم

حدّثنا الفتى صادق أمين قال:

كان الشيخ نايف مدعوّاً إلى الغداء عندنا، وكنت وأختي صادقة متلهّفين لزيارته، والجلوس بين يديه، والاستماع إليه، لأنه ـ كما قال لنا أبي ـ عالم جليل في كثير من العلوم الشرعية والأدبية والعربية، وخاصّة علم التاريخ الذي حفظه عن ظهر قلب، كما قال أبي، التاريخ القديم، والتاريخ الوسيط، والتاريخ الحديث، للعرب والعجم، وتاريخ المسلمين وغير المسلمين.

كنت لا أرفع عينيّ عن الساعة الجداريّة، إلا لأنظر في ساعتي اليدويّة، وكذلك كانت أختي صادقة، أمّا سائر إخوتي، فقد كانوا مشدودين إلى التلفزيون، يتابعون الرياضة وأخبارها، وكنت أحاول تنبيههم إلى الضّيف القادم، وكانت محاولاتي تذهب عبثاً.

وعندما رنَّ جرس الباب، أسرعت لاستقبال الشيخ، وأنا أطير من الفرح.

دخل الشيخ نايف، وإخوتي يتابعون السّباق على الشاشة الصّغيرة بعيونهم، فيما كانوا ينهضون لاستقبال الشيخ، والسلام عليه.

استقرّ الشيخ نايف على كرسيّه، وعيناه على إخوتي، وعيون إخوتي تلتهم المباراة والمتسابقين العدّائين التهاماً.

حاول أبي إغلاق الجهاز، ولكنّ الشيخ أشار إليه أن يتركهم وما هم فيه، حتى إذا ما انتهت المباراة بعد دقائق، قال الشيخ بصوته الجهوريّ:

ـ الآن أغلقوا التلفزيون، لأحدّثكم عن مباراة أخرى، وعن السبّاقين الأربعة من أجدادكم العظام.

أسرعت صادقة فأغلقت التلفزيون، ثمّ قرّبنا كراسيّنا من الشيخ، فقال أبي:

ـ هاتِ يا شيخنا الجليل.

فابتسم الشيخ ابتسامة كلُّها وقار، وقال في تساؤل:

ـ قبل الغداء أم بعده؟

أجاب أبي في ابتسام أيضاً:

ـ كما تحبّ.. الغداء جاهز.

فرفعتُ إصبعي كأنّني في المدرسة، وقلت:

ـ إذا سمحتَ أنت وأبي يا أستاذ، نسمع حديثك الآن، وعلى المائدة، وبعد المائدة، إذا تكرّمت.

وأسرعت صادقة تؤازرني بقولها:

ـ وأنا أضمّ صوتي الضّعيف إلى صوت صادق.

ازداد إشراق وجه الشيخ وقال:

ـ كما وعدتكم.. سوف أحدّثكم الآن حديث رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: عن السابقين الأربعة، في مباراة عالمية ـ إذا جاز التعبير ـ.. مباراة وسباق نحو الخير، وسعادة الإنسانيّة في الدّارين.. في هذه الحياة، وبعد الممات..

ولملم الشيخ أطراف عباءته، ثم مسح على لحيته الشقراء وقال:

ـ عن أنس رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

السُّبَّاق أربعة :

أنا سابق العرب

وصهيبٌ سابق الرُّوم

وسلمانُ سابق الفُرْس

وبلالٌ سابق الحبشة .

صدق رسول الله

الجميع : صلى الله عليه وسلم .

الشيخ : هذا هو السِّباق الحقيقيّ يا أحباب . . سباق نحو الله . . نحو الإسلام . . لإسعاد الإنسان . . لإنقاذ العرب من جاهليّتهم وأصنامهم، لإنقاذ الـرُّوم من صُلبانهم وضلالهم، لإنقاذ الفُرس من نـارهم وطغيـان طواغيتهم . . لإنقاذ البشرية من الظّلمات التي كانت تتخبّط بها .

ثمّ التفت نحو أبي وقال :

ـ سمعتُك تقول : الطعام جاهز، ونسينا أن نقول لك : ونحن جاهزون .

فهبَّ أبي قائماً وقال :

ـ حديث السُّبَّاق الأربعة العظام، أنساني الطّعام . . تفضَّلْ يا فضيلة الشيخ .

نهض الشيخ نايف، ثمّ تقدّم نحو المائدة، وبقيت وإخوتي حيث كنّا، وكلّي أملٌ ورجاء في أن يدعونا الشيخ إلى مؤاكلته، فأنا شديد الرّغبة في الجلوس إليه، والإفادة من كلّ كلمة وحركة تصدران منه .

ولم يخيّب الله رجائي، فقد جاءنا صوت الشيخ وهو يسأل أبانا عنّا،

ويطلب منه أن يسمح لنا بمشاركتهما الطعام، ثمّ جاءنا صوت الوالد يدعونا، وكنّا أسرعَ منه في تلبية النّداء.

جلستُ قُبالةَ الشيخ، وصرتُ أسترق النظر إليه، لعليّ أستفيد من طريقة طعامه، من كلامه، من كيفية شرابه، ولكنّي رأيته يأكل بضع لُقيمات، حمِدَ اللهَ بعدها، فألحّ عليه أبي لعلّه يستزيد من بعض الألوان التي لم يذقها، ولكنّ الشيخ كان يدعو لوالدي، وكأنّه لم يحسّ بإلحاحه:

ـ أكل طعامكم الأبرار، وأفطر عندكم الصائمون، وصلّتْ عليكم الملائكة الأخيار، وذكركم الله فيمن عنده. أدام الله النِّعم، وحفظها من الزّوال.

ومسح الشيخ شفتيه بالمنديل الأبيض الذي كان بجانبه، ثم قال:

ـ أحدُ السبّاقين الأربعة، سلمان الفارسيّ رضي الله عنه قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنّ أكثر النّاس شِبَعاً في الدّنيا، أطولُهم جوعاً يوم القيامة».

ولذلك، ما كان رسول الله ﷺ، وما كان أصحابه الكرام، يملؤون بطونهم، خاصّة بعد ما سمعوا النبيَّ الكريم عليه الصلاة والسّلام يقول:

«ما ملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيماتٌ يُقمْنَ صُلْبَه».

وكان سلمانُ الفارسيّ ـ سابق الفرس ـ يطالب من يطلب منه النصحية، بالقصد والدّوام.. بالاعتدال في كلّ شيء.

عدنا إلى أماكننا في غرفة الضّيوف، ورآنا الشيخ ننظر إليه، ننتظر حديثه، فبدا السُّرور في وجهه، ثمّ قال:

ـ يا سبحان الله!. المباراة في التلفزيون ذكّرتني بالسّبّاقين الأربعة، وطعامكم الطيّب الذي يغري من يذوقه بالاستزادة منه، ذكّرني بالرجل

الزاهد الصالح سلمان الفارسيّ رضي الله عنه، ما كان أروعه!.

فتجرّأت وقلت:

حدّثنا عن هذا الصّحابيّ الزاهد يا سيِّدي.

فتنحنح الشيخ وقال:

ـ كما تحبّ يا بنيّ أنت وإخوتك.

ثم التفت نحو أبي وقال:

ـ ما رأيك يا حاج؟

ـ وهل يعلو على رأيك رأيٌ يا سيِّدنا؟ تفضّلْ.

قال الشيخ:

ـ سلمان الفارسيّ، أيّها الشباب، صحابيّ جليل، مُلئ علماً، كما مُلئ زهداً وإيماناً وتواضعاً، كان يسمّي نفسه: (سلمان الإسلام) و(ابن الإسلام) ويقول:

أبـي الإسـلامُ لا أبَ لِـي سـواه ... إذا افتخـروا بقيـسٍ أو تميـمِ

أصله من مجوس (أصبهان) من بلاد فارس كما كانوا يقولون، ومن إيران، كما نقول اليوم، وُلد في قرية (جيان) أو (جَيْ) ونشأ فيها، وكان ذا عقل كبير، جعله يتمرّد على المجوسيّة التي يعبد أهلُها النار، ورحل إلى الشام والمَوْصل ونُصَيبين وعمُّورية، بحثاً عن الحقيقة، عن الدّين الذي يرتاح إليه، وتطمئنّ إليه نفسه، عند أصحاب تلك البلاد، من مجوس ويهود ونصارى، فجالس علماءهم، وقرأ كتبهم، ثمّ قصد بلاد العرب، عندما علم بقرب زمن النبيّ العربيّ محمد ﷺ، وصحب بعض بني كلب من العرب، فغدروا به وخانوه، وبعد أن استخدموه، استعبدوه، وباعوه ليهوديّ من بني قريظة، فجاء به إلى المدينة المنوّرة، وفي المدينة علم بهجرة النبيّ الكريم إليها، فقصده سلمان، وجلس بين يديه، وآمن به، فأمر النبيُّ الكريم

أصحابه بأن يساعدوا سلمان على تحرير نفسه من الرّقّ والعبوديّة، فسارع الصحابة إلى مساعدته، فاشترى نفسه من صاحبه اليهوديّ، وصار حرّاً كسائر الصّحابة الكرام، ولازم النبيَّ، واستفاد من علمه وأخلاقه وزهده، وكان سلمان ذا رأي حصيف، وهو الذي أشار على النبيّ الكريم ﷺ بحفر الخندق، عندما غزت الأحزاب المدينة، وكان سلمان قويَّ البنية، فاختلف فيه المهاجرون والأنصار، كلٌّ فريق يريده أن يكون معه، فقال لهم رسول الله

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: «سلمانُ منّا أهلَ البيت».

صادقة: هنيئاً له بهذا النّسب الجديد.. أن يكون من أهل بيت النبيّ

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادقة: وأن يكون ابن الإسلام، وسلمان الإسلام.

ثمّ التفتت صادقة إلى أبيها وقالت:

ـ ما أجمل هذا النّسب يا أبي!.. سلمان الإسلام.. صادقة الإسلام!.

فابتسم أبي قائلاً:

ـ بارك الله فيك يا ابنتي يا صادقة، فلك ذكاءٌ لمّاح، وعقلٌ أكبر من عمرك، يا صادقة الإسلام.

ابتسم الشيخ ابتسامة عريضة، وابتسمنا معه في سرور، ثم سألتُ الشيخ الجليل:

ـ متى وُلد سلمان ومتى توفّي يا سيّدي؟

أجاب الشيخ:

ـ لقد عاش الصحابيّ الجليل سلمان عمراً مديداً، طويلاً.. لا أحد يعرف متى ولد، ولكننا نعرف أنه توفّي سنة ستٍّ وثلاثين من الهجرة.

يبدو أنّ النّسب الجديد لسلمان رضي الله عنه كان يلحّ على صادقة، فسألت الشيخ:

ـ هل كان أقربـاء النبيّ الكريم ﷺ يعدّون سلمان واحداً منهم ياشيخي الجليل؟

عادت الابتسـامة العريضة تتوّج الشـفتين المكتنزتين، لتنفرجا عن أسنان نظيفة سليمة، قبل أن ينطلق لسان الشيخ بقوله:

ـ كان أمير المؤمنين عليٌّ كرّم الله وجهه إذا سُئل عن سلمان يقول:

«سلمان امرؤ منّا وإلينا أهلَ البيت»

وإذا سُئل عن علم سلمان كان يجيب:

«من لكم بمثل لقمان الحكيم؟ علمَ العلمَ الأوّل، والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول، والكتاب الآخر، وكان بحراً لا ينزف.».

فهتفْنا جميعاً:

ـ الله أكبر.. الله أكبر..

وقال أبي:

ـ هذه الشهادة من الإمام علي، لاتَعْدِلُها شهادة..

فقال الشيخ:

ـ كان سلمان معروفاً عند الصّحابة الكرام بسلمان الخير، وكان كعب الأحبار يقول:

«سلمان حُشي علماً وحكمة».

واسمعوا هذا الحديث الشريف.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: كنّا جلوساً عند النبيّ ﷺ، فأُنزلت عليه سورة الجمعة:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة : ١ ـ ٣].

قلت : من هم يا رسول الله؟ فلم يردّ عليّ ، فأعدت السؤال مرّة ثانية ، وثالثة ، وكان فينا سلمان الفارسيّ ، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ، ثم قال :

«لو كان الإيمان عند الثّريّا ، لنا له رجال أو رجل من هؤلاء» .

صادقة : ما شاء الله . . هنيئاً لسلمان الإسلام بشهادة رسول الله .

الجميع : صلى الله عليه وسلم .

الشيخ : واسمعوا هذا الحديث اللطيف .

عن ثابت رضي الله عنه قال :

كان سلمان في عصابة يذكرون الله ، فمرّ النبيّ ﷺ ، فكفّوا . فقال النبيُّ .

الجميع : صلى الله عليه وسلم .

الشيخ : قال لهم النبيّ الكريم :

«ما كنتم تقولون؟»

قالوا : نذكر الله .

قال النبي الكريم عليه الصلاة والسلام :

الجميع : عليه الصلاة والسلام .

الشيخ : «إني رأيت الرحمة تنزل ، فأحببت أن أشارككم فيها» .

ثمّ قال :

«الحمد لله الذي جعل في أمتي من أُمرتُ أن أصبر نفسي معهم».

الجميع: ما شاء الله.

الشيخ: وكان سلمان رضي الله عنه من أصحاب الكرامات، أذكر لكم منها هذه الكرامة:

بينما كان سلمان وأبو الدرداء ـ رضي الله عنهما ـ يأكلان في قصعة، إذا هما يسمعان تسبيح تلك القصعة، وتسبيح الطعام الذي فيها.

الجميع: ما شاء الله.. الله أكبر.

صادقة: هل هناك آية كريمة أو آيات، نزلت في هذا الصحابيّ الجليل يا عمّي الشيخ؟

الشيخ: طبعاً طبعاً..

من هذا القبيل، نزول الآية الكريمة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان الفارسيّ رضي الله عنه، وذلك أنّ سلمان حين قدِمَ على رسول الله ﷺ، جعل يخبر عن عبادتهم ـ يعني عن عبادة أصحابه ـ واجتهادهم، وقال: يا رسول الله. كانوا يصلّون ويصومون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك تُبعث نبيّاً.

فلمّا فرغ سلمان من ثنائه على أصحابه أولئك، قال رسول الله ﷺ: «يا سلمان، هم من أهل النّار» فأنزل الله هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ التي ذكرتُها لكم قبل قليل.

صادق: من هم أصحاب سلمان هؤلاء يا سيِّدي الشيخ؟ أليسوا من أصحاب رسول الله ﷺ؟

الشيخ: الحقّ معك يا صادق، فأنا لم أحدّثكم عن أصحاب سلمان، فاسمعوها..

تقول كتب التاريخ:

كان سلمان صديقاً لابن الملك، وكانوا كلهم من المجوس، وكانت صُحْبتهما قويّة، وصداقتهما متينة، يتشاوران في كلّ أمر ويتناصحان، ولا يقضي أحدهما أمراً دون صاحبه، وكانا يخرجان إلى الصّيد معاً.

وذات مرّة، وفيما هما في رحلة صيد، شاهدا بيتاً من شَعْر، فسارا إليه، ووجدا فيه رجلاً يقرأ في كتاب ويبكي. فسألاه عن أمره، وعمّا يبكيه، فقال لهما:

«الذي يريد أن يعلم هذا، لا يقف موقفكما، فإن كنتما تريدان أن تعلما ما فيه، فانزلا حتى أعلّمكما».

فنزلا إليه، فقال لهما ذلك الرجل:

«هذا كتاب جاء من عند الله، أمر فيه بطاعته، ونهى عن معصيته، نهى عن الزّنى والسرقة، ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل».

وقال لهما: هذا الكتاب هو (الإنجيل) الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام.

فوقع كلام الرجل في قلوبهما، وتابعاه، وأسلما معه، فقال لهما:

«إنّ ذبيحة قومكما عليكما حرام، فلا تأكلوا ممّا يذبح قومكم».

واستمرت الصلة بينهما وبين ذلك الرجل النصراني الراهب، حتى كان يوم عيد الملك، فذُبحت الذّبائح، وقُدّم الطعام للناس، وصار الناس يلتهمون من ذلك الطعام اللذيذ، ولاحظ الملك والناس أن سلمان وابن الملك لا تمتدّ أيديهما إلى الطعام، فأمرهما الملك بالأكل، فقال له سلمان:

«إنّا لا نأكل من ذبائحكم.. إنكم كفّار، ولا تحلّ ذبائحكم».

قال الملك: من قال لك هذا؟

قال سلمان: راهبٌ التقيناه وآمنّا بما يقول.

فدعا الملك الراهب، وقال له:

«ماذا يقول هذان؟»

قال الراهب: صدقوا فيما قالوه.

قال الملك: لولا أنّ الدّم فينا عظيم لقتلتك. ولكن اخرج من أرضنا.

فخرج الراهب من مجلس الملك، ولحق به سلمان وابن الملك وهما يبكيان عليه، فقال لهما:

«إن كنتما صادقين، فأنا في بيعة (أي في كنيسة) بالموصل، مع ستين رجلاً نعبد الله فيها».

فلمّا التقى سلمانُ رسولَ الله ﷺ أخبره خبرهم، وقال للنبيّ الكريم: «لو أدركوك صدّقوك واتّبعوك».

فنزلت الآية التي ذكرتُها لكم، فدعا رسولُ الله ﷺ سلمانَ وقال له:

«نزلت هذه الآية في أصحابك.»

ثمّ قال النبيّ ﷺ:

«من مات على دين عيسى ومات على الإسلام قبل أن يسمع بي، فهو على خير، ومن سمع بي اليوم ولم يؤمن بي فقد هلك».

الجميع: صدق رسول الله ﷺ.

الشيخ: ثم أنزل الله تعالى:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] صدق الله العظيم.

صادقة: هل تذكر لنا بعض أقوال سلمان الإسلام يا عمّي؟

الشيخ : لا بأس يا صادقة . . اسمعوا ما قال سلمان رضي الله عنه . .

قال : «ثلاثٌ أعجبتني حتى أضحكتني :

مؤمّل دنيا والموتُ يطلبه

وغافلٌ وليس بمغفول عنه

وضاحكٌ ملءَ فيه، لا يدري أساخطٌ ربُّ العالمين عليه، أم راضٍ عنه» .

صادقة : يا سلام . . ما أروع هذا الكلام .

الشيخ : لم ينتهِ كلامٌ سلمان . .

«وثلاثٌ أحزنتني حتى أبكتني :

فراقُ محمّدٍ وحزبه

وهَوْلُ المطلع

والوقوف بين يدي ربّي عزّ وجلّ، ولا أدري إلى جنّته أو إلى ناره» .

صادقة : وأنا تحزنني هذه الثلاثة وتبكيني يا عمّي .

الشيخ : لمّا افتتح المسلمون (جَوْخَى)، وهي بلدة في العراق، دخلوا يمشون فيها، وأكداسُ الطعام فيها أمثال الجبال. وكان سلمان يمشي مع رجل من المسلمين، فقال الرجل لسلمان :

ـ يا أبا عبد الله . . ألا ترى إلى ما أعطانا الله؟!

فقال سلمان :

ـ وما يعجبك؟ ألا ترى إلى جنْب كلِّ حبّة ممّا ترى حساباً؟

صادق : هذا الصّحابيّ الجليل من رجال الآخرة يا سيِّدي .

الشيخ : ولهذا زهد في هذه الدنيا وأعرض عن زخارفها . .

كان سلمان والياً على المدائن.

صادقة: عاصمة كسرى؟

الشيخ: نعم يا صادقة.. بعد أن فتحها المسلمون طبعاً.

صادقة: طبعاً.

الشيخ: وكان راتب سلمان خمسة آلاف.

صادق: في الشهر؟

الشيخ: بل في السنة.. وكان سلمان ينفق عطاءه (أي راتبه)، يوزّعه على فقراء المسلمين، وكان ينسج الخُوص (أي ورق النَّخل) ويأكل من عمل يده.. وكان يقول:

«أشتري خوصاً بدرهم، فأعمله وأبيعه بثلاثة دراهم، فأعيد درهماً فيه، وأنفق درهماً على عيالي، وأتصدّق بدرهم».

صادق: الله أكبر.. أمير مدينة المدائن، ينفق راتبه على الفقراء والمساكين والمحتاجين، ويأكل من عمل يده، من نسج الخُوص؟ أين نحن من أولئك الرجال العظام يا سيِّدي؟

الشيخ: اسمع ـ يا ولدي ـ ما فعل أمير المدائن سلمان رضي الله عنه..

جاء رجل من أهل الشام، ومعه حملُ تِبْن، فمرّ بسلمان في ثوبه المتواضع، وعباءته التي كان يخطب الناس وهي على كتفيه، فكان يفرش بعضها، ويلبس بعضها..

رآه الشاميُّ في ثيابه المتواضعة، وفي بنيته القويّة، فقال له:

ـ تعالَ احملْ هذا الكيس من التّبن.

صادقة: كأنّه ظنّه حمّالاً يا عمّي؟!.

الشيخ : نعمْ يا صادقة . . هكذا ظنّه .

صادق : وماذا كان ردّ الأمير سلمان يا سيِّدي؟

الشيخ : امتثلَ سلمانُ للأمر ، وحمل كيس التّبن ، وسار خلف الشامي ، ورآه الناس ، فقالوا للشامي :

ـ ويحك . . هذا أمير المدائن .

فاعتذر الشاميّ ، وقال لسلمان :

ـ لم أعرفك يا سيِّدي .

وطلب منه أن يعطيه الحمل ، ولكنّ سلمان أبى إلا أن يوصله إلى بيته ، وقال له :

ـ إني قد نويت فيه نيّة ، فلا أضعه حتى أبلغ بيتك .

صادقة (ساخرة) : مثلنا تماماً ! .

فضحك أبي والشيخ ، فضحكنا ، وأطلق أخي الصغير ضحكة كانت محبوسة ، ثمّ قال في مرارة :

ـ لو سمعوكِ لحبسوكِ يا صادقة .

وقال الشيخ ، وهو يلملم أطراف عباءته :

ـ أخيراً . . أريد أن أذكّركم بالحادثة المشهورة ، عندما اعتلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب المنبر ، وعليه حُلّة ـ والحُلّة مؤلفة من ثوبين ـ . وخطب الناس قائلاً :

ـ أيها الناس . . . اسمعوا وأطيعوا .

فصاح سلمان بصوته المجلجل :

ـ والله لا نسمع ولا نطيع .

فسأله أمير المؤمنين :

ـ لماذا يا أبا عبد الله؟!

أجاب سلمان :

ـ إنك قسمت علينا ثوباً ثوباً، وعليك حُلّة (أي ثوبان).

فقال أمير المؤمنين وهو على المنبر :

ـ لا تعجلْ يا أبا عبد الله.

ثمّ نادى عمر : يا عبد الله. فلم يجبه أحد، فنادى من جديد :

يا عبد الله بن عمر.

فأجابه ابنه عبد الله : لبّيك يا أمير المؤمنين.

فقال عمر : نشدْتُك الله. الثوب الذي اتّزرتُ به، أهو ثوبُك؟

قال عبد الله : اللهمّ نعم.

عندئذٍ قال له سلمان رضي الله عنه :

ـ الآنَ قلْ نسمعْ.

فسرتْ همهمة إعجاب بيننا، فيما كان الشيخ ينهض مودِّعاً.

* * *

أسرعتُ إلى غرفتي، وسجّلت بعض المعلومات التي ذكرها لنا الشيخ نايف عن الصحابيّ الجليل سلمان الفارسيّ رضي الله عنه، ثمّ غبتُ في حلم جميل من أحلام اليقظة، تخيّلتُ فيه سلمان، وما يمكن أن يكون عليه.. تخيّلتُ طوله وعرضه، لون بشرته، لون شعره، لون عينيه، كيفية نطقه، لباسه.. وما إلى ذلك، وفيما أنا على تلك الحال، برز أمامي رجلٌ طويل السّاقين، غزير الشعر، كثّ اللحية، قويّ البنية، شديد الأسر، له

ساعدان قويّان، فيه تواضعٌ وفيه شموخ يجعلك تهابه وتحترمه، ولكنّه لا يبعدك عنه . .

هببتُ واقفاً، وكدتُ أصيح :

ـ عَرَفتُك . . أنت سلمان الفارسيّ . .

ولكنّي كففتُ وأحجمتُ بعد ما أقدمتُ، وغضضتُ بصري حياءً ومهابة، ثمّ رفعتُه إليه، فطالعتني ابتسامة حلوة توّجتْ شفتيه، والتمعت في عينيه، فهتفت :

ـ أهلاً بك يا سيِّدي في بيتك .

مدّ يده المديدة، فضاعت كلتا يديّ في كفّه، وحاولت أنْ أهزَّ يده، أن أحرّكها بالسلام، فلم أستطع، فتذكرت العضلات المفتولة في ساعديه، وتمنّيت لو أنّ الله الكريم يرزقني ساعدين كساعديه، لأكون المؤمن القوي الذي يحبُّ الله ويحبُّه الله .

غبت لحظةً في حلم لذيذ، أفقتُ منه على همسة في أذني :

ـ انتبه يا صادق، هذا هو حبيب شيخنا . . هذا هو الصحابيّ الجليل . .

فقاطعها الرجل المهيب :

ـ أنا أخوكم في الإسلام . . أنا سلمان الفارسيّ .

فهتفتْ صادقة :

ـ بل أنت سلمان الإسلام يا جدّي العزيز .

ظهرت السعادة في عيني سلمان الإسلام، وقال :

ـ كأنكِ تعرفينني يا ابنتي .

أجابت صادقة :

ـ لقد حدّثنا شيخنا عنك كثيراً يا جدّي، وقال لنا : إنك كنت تنتسب

إلى الإسلام، فأنت ابن الإسلام، وأنت سلمان الإسلام.

ازدادت ابتسامة سلمان اتّساعاً، ثمّ تساءل:

ـ ثمّ ماذا؟

فقالت صادقة:

ـ أنا، الأمَةَ الفقيرةَ إلى الله، أعرف بعض أخبارك يا سيّدي.. كنت أقرأ سيرة جدّي أبي الدّرداء، وجدّتي أمّ الدّرداء، فعرفتُ بعض أخبارك، كما عرفت بعضها الآخر من قراءتي لكتب التاريخ وسير الرجال، وأنت من ساداتهم.

كان الإعجاب ظاهراً على مُحيًّا الرجل الصالح، وهو يستمع إلى صادقة، وهي تتحدّث بلسانها العربيّ المُبيْن:

ـ اسمك، يا جدّي العزيز، سلمان، وكنيتُك: أبو عبد الله، وأنت من أهل أصبهان في إيران.

ـ في ماذا؟

ـ عفواً يا جدّي.. أصبهان من (فارس) التي ندعوها اليوم (إيران)..

ـ ثمّ ماذا؟

ـ تركتَ دين آبائك، وخرجت تبحث عن الحقيقة.. عن الدين الذي ترتاح إليه النفس والعقل، وعندما علمتَ بقرب بعثة النبيّ العظيم محمد ﷺ في بلاد العرب، وجّهتَ وجهك إلى هناك، وصحبتَ قافلة عربية، فغدروا بك، وجعلوك عبداً لهم، وباعوك ليهوديّ من أهل المدينة، ثم أسلمتَ لله ربِّ العالمين، وآمنت برسوله الأمين ﷺ.

وسكتت صادقة هنيهة، ثمّ قالت:

ـ هذا بعض ما يحضرني من سيرتك العطرة يا جدّي العظيم، فهل أزيد؟

فانبريتُ أقول :

ـ أختي صادقة تقرأ كثيراً عن أجدادنا العظماء ، وأنا أقرأ مثلها تقريباً ، ولكنَّا نحبّ أن نسمع سيرة حياتك من لسانك الطاهر يا سيِّدي .

ثمّ انتبهتُ إلى أنّ الصحابيّ الجليل ما زال قائماً على قدميه ، فأبديتُ أسفي واعتذاري ، فقد كانت المفاجأة كبيرة بمثولي بين يدي رجل عظيم أحبَّه رسول الله ﷺ ، وأحبّه المهاجرون والأنصار ، وأحبَّه شيخنا ، كما أحبَّتْه ملايين المسلمين على مدى أربعة عشر قرناً .

حاول الشيخ الجليل مقاطعتي لأكفّ عن إطرائه ، ولكنّي كنت مندفعاً يتدفّق الكلام من فمي في إطراء الرجل بما أعرف عنه ، ثمّ تذكّرتُ أنّ «الامتثال خير من الأدب» فقلت له ، وأنا أشير إلى الكرسيّ الأثير لديّ :

ـ تفضَّلْ بالجلوس يا سيِّدي .

وبعد أن استقرّ في مجلسه قلت :

ـ الآن ، يا سيِّدي ، جاء دورك ، لتحدّثنا عن حياتك الحافلة .

وقالت صادقة التي كانت تجلس إلى يمينه :

ـ لا نريد أن نشقَّ عليك يا جدّي العزيز ، وإن كنّا نرغب في سماع الصغيرة والكبيرة من الحوادث التي حفلتْ بها حياتك المديدة .

تحرّك الصحابيّ الجليل في مقعده ، ثمّ قال :

ـ كما تحبّان يا حفدة رسول الله ﷺ ويا أحبّاءه ، ويا أبناء الإسلام العظيم . .

سوف أحدّثكم بإيجاز ، على عادتكم أنتم العرب ، فالبلاغة في الإيجاز ، وكان رسول الله ﷺ يوجز إذا تكلم ، ويوجز إذا خطب ، ويوجز إذا تحدّث لجلسائه والوافدين إليه ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

كنتُ رجلاً من أهل أصبهان ، من قرية يقال لها (جَيْ) . .

وكان أبي دُهْقان أرضه.

صادق: عفواً سيِّدي، ما معنى الدُّهْقان؟

سلمان: الدهقان: السيّد والرئيس وصاحب القرية.

صادق: شكراً لك يا سيِّدي..

سلمان: وكنت من أحبِّ عباد الله إليه.. إلى أبي..

وقد اجتهدتُ في المجوسيّة، حتى كنت قاطن النار التي نوقدها، ولا نتركها تخبو.

صادق: عفواً سيِّدي على مقاطعتي إياك.. ما معنى قاطن النار؟

سلمان: قاطن النار: الذي يوقد النار.. القيِّم على النار.. وكنتُ أنا القيّم على نار المجوسيّة.

صادق: أعوذ بالله.

سلمان: وكان لأبي ضيعة، أرسلني إليها يوماً، فخرجت، فمررت بكنيسة للنصارى، فسمعتهم يصلّون، فدخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فأعجبني ما رأيت من صلاتهم، وقلت لنفسي: هذا خير من ديننا الذي نحن عليه، فما برحتُهم (أي ما تركتُهم وغادرتهم) حتى غابت الشمس، ولا ذهبت إلى ضيعة أبي، ولا رجعتُ إليه، حتى بعث في أثري..

صادقة: ألم تسأل النّصارى عن دينهم يا جدّي؟

سلمان: بلى سألتهم عن دينهم، وعن أصل هذا الدّين، فقالوا لي: في الشام.

صادق: وماذا قلتَ لأبيك يا سيِّدي عندما عدتَ إليه؟ ألم تسوّغ له سبب غيابك؟ و..

سلمان: على رِسْلك يا بنيّ.. سوف أحدّثك بما يشفي غليلك إن شاء الله..

قلت لأبي حين عدت إليه: إني مررت على قوم يصلّون في كنيسة لهم، فأعجبتني صلاتهم، ورأيت أنّ دينهم خير من ديننا.

صادق: الله أكبر.. تقول لأبيك بكلّ صراحة؟

صادقة: ما كانوا يعرفون اللفّ والدّوران مثلنا يا أخي.

صادق: أما خفتَ منه يا سيِّدي؟ فأنت تتركُ دينه إلى دين جديد.

سلمان: لا بدَّ من الصّدق يا أولادي.. هذا دين وليس الدين بالأمر السَّهل، ولا بالأمر الهيّن الليّن.. عقيدة تعتقدها وتواجه بها ربَّك.. ولهذا لم أخف، كما أنني قلت لكم: إنه كان يحبّني ويُؤثرني على غيري.. وقد حاورني أبي فيما قلت وحاورته، فلم يقتنع بما قلت له، كما لم أقتنع بالعودة إلى عبادة النار التي أوقدها، وفي استطاعتي أن أطفئها بما أريق عليها من ماء.

صادقة: ثمّ ماذا يا جدّي؟

سلمان: ثمّ جعل أبي في رجلي حديداً.. قيّدني بقيود حديديّة، وحبسني.

صادقة: لا حول ولا قوة إلا بالله.. هذه ضريبة يبدو أنه لا مفرَّ من أدائها.. كلّ مؤمن مكتوبٌ عليه دفع هذه الضريبة.

صادق: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣]. صدق الله العظيم.

صادقة: وبعدها يا جدّي العزيز؟.

سلمان: أرسلتُ إلى النصارى أخبرهم أني دخلت في دينهم، وسألتهم إذا قَدِمَ عليهم ركبٌ من الشام أن يخبروني قبل عودتهم إليها،

لأرحل إلى الشام معهم. وقد فعلوا. فحطّمت الحديد وخرجت، وانطلقت معهم إلى الشام.

صادق: هنيئاً لك يا سيِّدي هذه الجرأة وهذا الإيمان.

سلمان: وهناك في الشام، سألت عن عالمهم، فقيل لي: هو الأسقف صاحب الكنيسة. فأتيتُه وأخبرتُه خبري، وأقمتُ معه أخدم، وأصلّي.

صادقة: حقّقتَ أمنيتك يا جدّي.

سلمان: لا يا ابنتي.

صادقة: لماذا يا جدّي؟

سلمان: لأنّ ذلك الأسقف كان رجل سوء في دينه، إذ كان يجمع الصّدقات من الناس ليوزّعها، ثمّ يكتنزها لنفسه.

صادقة: ولا يعطيها الفقراء والمحتاجين؟

سلمان: كما قلت لكما.. ولهذا أبغضته بغضاً شديداً.

صادقة: بئس رجل الدين هو.

سلمان: ثمّ مات.

صادقة: واسترحتَ واستراح الناس من سوئه وشروره.

سلمان: مات الأسقف السيّئ الذي اكتنز لنفسه سبع قِلال (جِرَار) من الذهب، وكلُّها سرقها من أموال الصّدقات، من أموال الفقراء والمساكين، فاجتمعتْ إليه النّصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إنّ هذا الأسقف كان رجل سوء، يأمركم بالصّدقة ويرغّبكم فيها، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئاً.

قالوا: وما علمُك بذلك؟

قلت: أنا أدلّكم على كنزه.

قالوا: فدلّنا عليه.

فأريتُهم موضعه، فاستخرجوا منه سبع قِلال مملوءة ذهباً، فلّما رأوها قالوا:

«والله لا ندفنه أبداً».

فصلبوه، ثمّ رجموه بالحجارة.

صادق: يستأهل هذا المصير.

صادقة: وأنت، يا جدّي العظيم، تستأهل كلَّ خير على شجاعتك وأمانتك.

صادق: إني أتخيّل ماذا كان يفعل غيرك؟ لا بدّ أنه كان يسرق ذلك الذهب، ويسكت عن ذلك الأسقف الشرّير.

صادقة: ولهذا جذبك الإسلام إليه، وكنت صفيَّ رسول الله ﷺ.

صادق: ثمّ ماذا يا سيّدي؟ فقد شوّقتَنا لمعرفة المزيد من هذه الحياة الحافلة.

سلمان: ثمّ جاؤوا برجل آخر فجعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً يصلي الخمس أفضلَ منه، ولا أزهدَ في الدنيا، ولا أرغبَ في الآخرة، ولا أدأبَ منه على العبادة ليلاً ونهاراً.

صادقة: هنيئاً لك به يا سيّدي، فقد وقعتَ على ضالّتك.

سلمان: فأحببتُه حبّاً ما علمتُ أنّني أحببتُ أحداً مثله قبْلَه.. وأقمتُ معه زماناً، فلمّا حضرتْه الوفاة قلت له:

«يا فلان. إني قد كنت معك، فأحببتك حبّاً لم أحبَّه أحداً من قبلك، وقد حضرتْك الوفاة، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟».

قال: «أيْ بنيّ.. والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنتُ عليه، لقد

هلك الناس، وبدّلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالمَوصل، وهو فلان، وهو على ما كنتُ عليه، فالْحَقْ به».

صادق: أعوذ بالله.. لم يبق على دين النصرانية إلا ذلك الرجل؟ ومنذ ذلك الزمان؟.

صادقة: أجل يا أخي.. لقد غيّروا، وبدّلوا، وتركوا دين الله، واتّبعوا الهوى والشّهوات، هم واليهود من قبلهم، ولذلك لم يؤمنوا بالنبيّ الكريم محمد.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادقة: الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

سلمان: عليه الصلاة والسلام.

فلمّا مات الرّجل، وغُيّب تحت الثَّرى، لحقتُ بصاحب الموصل، فقلت له:

«يا فلان. إنّ فلاناً أوصاني عند موته أن ألحقَ بك، وأخبرني أنّك على أمره».

فقال لي:

«أقمْ عندي».

فأقمتُ عنده ما شاء الله أن أقيم، ثمّ حضرتْه الوفاة، فقلت له:

«يا فلان. إنّ فلاناً أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني به؟»

قال: «أيْ بنيّ. والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنّا عليه إلا رجلاً بنُصيبين، وهو فلان. فالْحَقْ به».

صادقة: كم تعذّبتَ وأضنيتَ نفسك يا جدّي، وأنت تلاحق الصالحين، بحثاً عن الحقيقة.

سلمان: فلّما مات صاحبي وغُيِّب في التّراب، لحقتُ بصاحب نصيبين، وأخبرته بما جرى وبما كان من أمري، ومما أمرني به صاحبي، فقال لي:

«أقمْ عندي».

فأقمتُ عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، ولكنّ الموت ما لبث أن نزل بذلك الرجل الخيّر، فلمّا حضرته الوفاة قلت له:

«يا فلان. إنّ فلاناً كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟»

قال: «أيْ بنيّ. والله ما أعلم أحداً بقي على أمرنا، آمرُك أن تأتيه، إلا رجلاً بعمّورية، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببتَ فأتِه، فإنّه على مثل أمرنا».

فلمّا مات صاحب نصيبين هذا، لحقتُ بصاحب عمّورية، وأخبرته خبري، فقال:

«أقمْ عندي».

فأقمتُ عند رجل على هَدْي أصحابه وأمرِهم.

صادق: عفواً يا سيِّدي.. كيف كنتَ تعيش؟ من أين كنتَ تأكل؟ من مالٍ أخذتَه من أبيك الغنيّ مثلاً؟

سلمان: لا يا بنيّ.. ما كان لي أن آكل من ذلك المال الحرام، مال المجوس، بل كنت أعمل بيدي، وآكل من عرق جبيني.

صادقة: بارك الله فيك يا جدّي العفيف، فما ينبغي لرجل مثلك يترك المال والزّعامة والجاه في بلده، ويرحل وراء حلم كان يراودك للوصول إلى الدّين الحقّ.. أقول: ما ينبغي لمثلك إلا أن يأكل من كدّ يمينه.

صادق: أنا أعتذر عن سؤالي الفجّ يا سيّدي.

سلمان: ولمَ الاعتذار يا بنيّ؟ أنت لم تخطئ في سؤالك. . كان ينبغي أن تسأل، لتعرف الحقيقة.

صادقة: وأنا أعتذر عن سؤال أخي يا جدّي، لأنّه كان عليه أن يعرف مع من يتحدّث.

سلمان: يتحدّث مع رجل مسلم كسائر المسلمين يا بنيّة. .

هل أتابع حديثي؟

صادق وصادقة: نعم يا سيّدي يا جدّي العزيز.

سلمان: ثمّ نزل الموت بساحة صاحبي، وقبل أن تدركه الوفاة، ذكرتُ له ما كان من أمري مع أصحابه، ثمّ سألته أن يوصي بي إلى من يعرف من أصحابه الصالحين، وما يأمرني به، فقال:

«أيْ بنيّ. والله ما أعلم أصبحَ على ما كنّا عليه أحدٌ من الناس آمرُك أن تأتيه، ولكنّه قد أظلّك زمان نبيّ مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجراً إلى أرضٍ بين حَرّتين.

صادق: عفواً يا سيّدي. . ما معنى الحَرّتين؟

صادقة: أنا أجيبه يا جدّي إذا سمحت.

سلمان: أجيبيه يا صادقة.

صادقة: الحَرّتان مثنّى حَرّة. والحَرّة: هي الأرض ذات الحجارة السود.

صادق: شكراً لك يا صادقة. . نعمْ يا سيّدي الصّحابيّ الجليل.

سلمان: قال لي صاحبي أسقف عمّورية:

«قد أظلّك زمانُ نبيّ مبعوثٍ بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجراً إلى أرضٍ بين حَرّتين، بينهما نخلٌ، وفيه علاماتٌ لاتخفى، يأكل

الهديّة، ولا يأكل الصَّدَقة، بين كتفيه خاتم النبوّة. فإن استطعتَ أن تلحق بتلك الدّيار فافعل».

صادقة: علامات النبوّة إذن، يا جدّي، أنّ النبيّ العربيّ

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادقة: لا يأكل الصَّدقة، ويأكل الهديّة، وبين كتفيه خاتم النبوّة.

سلمان: نعم يا ابنتي.. هكذا قال لي صاحبي الرجل الصالح: أسقف عمّورية.

ثمّ مات هذا الرجل الصالح، فمكثت بعمّورية ما شاء الله أن أمكث، ثمّ مرّ بي نفرٌ من التجار، من قبيلة بني كلب العربيّة، فوجدتها فرصة سانحة، في الذّهاب إلى بلاد العرب، فعرضتُ عليهم أن يحملوني معهم إلى أرض العرب، وأعطيهم بقراتي وغنماتي.

صادق: فقبلوا.

سلمان: فأعطيتهم إياها، وصحبْتُهم، حتى إذا قدِموا بي إلى وادي القُرى، ظلموني، فباعوني لرجل من يهود.

صادق: كيف باعوك وأنت حرّ يا سيّدي؟

سلمان: غدروا بي، وادّعوا أنني عبدٌ من عبيدهم، وصرتُ إلى ذلك اليهوديّ، ورأيت النخل، ورجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي أسقف عمّورية.

صادق: ولكنّك تقول، يا سيّدي، إنهم باعوك في وادي القُرى، وليس في المدينة المنوّرة.

سلمان: حلمَك عليّ يا صادق، حتى أتمَّ حديثي.

صادق: أنا آسف يا سيِّدي.. تفضّلْ.

سلمان: فبينا أنا عند ذلك اليهوديّ، قدِمَ عليه ابن عمّ له من المدينة

المنوّرة، من بني قريظة، فابتاعني (أي اشتراني) منه، واحتملني (أي أخذني معه) إلى المدينة، فوالله، ما إنْ رأيتُها حتى عرفتُها، فقد كانت كما وصفها لي صاحبي العمّوري، فأقمتُ فيها.

صادق: ورأيتَ النبيَّ الكريم ﷺ؟

سلمان: لا يا صادق.. ابتعث الله رسوله ﷺ في مكة، فأقام فيها كلَّ تلك المدّة، وأنا لا أسمع له بذكر، مع ما أنا فيه من أمر الرّقّ من شغل.

صادقة: لا حول ولا قوة إلا بالله..

سلمان: ثمّ هاجر النبيّ الكريم إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس نخلة لسيّدي اليهوديّ أعمل فيها بعض العمل، وسيّدي جالس في ظلّ النخلة، إذ أقبل ابن عمٍّ له حتى وقف عليه، فقال له:

«يا فلان.. قاتل الله بني قَيْلة. والله إنهم الآن لمجتمعون في (قُبَاء) على رجل قدمَ عليهم من مكة اليوم، يزعم أنّه نبيّ».

صادق: عفواً يا سيِّدي لمقاطعتك.. من هم بنو قَيْلة؟

صادقة: أنا أقول لك يا أخي.. إنهم الأوس والخزرج، لُقِّبوا بهذا الاسم، نسبة إلى أمّهم قَيْلة بنت كاهل.

صادق: شكراً يا صادقة.. تفضّل يا سيّدي تابعْ حديثك، فهو يأخذ بمجامع القلوب.

سلمان: فلمّا سمعت كلامه، أخذتْني الحُمَّى، حتى ظننتُ أني ساقط على سيّدي. ثمّ نزلتُ عن النخلة، وقلت لابن عمه: ماذا تقول؟

فغضب سيّدي، فلكمني لكمة شديدة وقال:
«مالك ولهذا؟ أقبلْ على عملك».

اشتدّ غضبي لما أسمع، فقلت لسيّدي سلمان:

ـ وسكتَّ له؟

أجاب الرجل الصالح :

ـ قلت له : لا شيء . . لا أريد شيئاً . إنما أردت أن أتأكّد من صحّة ما سمعت من ابن عمّ سيّدي .

وقلت في الحدّة نفسها :

ـ وما تزال تصفه بسيّدك؟

أجاب الصحابيّ الجليل في ابتسام :

ـ أليست هذه هي الحقيقة؟

فصحتُ :

ـ أيّ حقيقة تعني؟ أن يغدر بك أجلاف العرب ، ويبيعوك ليهوديّ أثيم ، بعد أن أعطيتهم كلَّ ما تملك من غنم وبقر؟

قال الصحابيُّ الجليل في هدوء عجيب :

ـ لا تأسَ (تحزن) على ما فات ، والأمور بخواتيمها .

وتدخّلتْ صادقة :

ـ ألا نعود إلى حديثك الرائع يا جدّي الرائع؟

ابتسم الرجل الصالح وهو يقول :

ـ بل أنتم الرائعون . . أنتِ يا صادقة . . وأنت يا صادق .

وجال بناظريه فينا ثمّ قال متابعاً حديثه :

ـ ولمّا أمسيتُ ، جمعتُ ما كان عندي ، ثم خرجتُ حتى جئتُ رسول الله ﷺ بقُباء . . دخلتُ عليه ، وكان معه نفرٌ من أصحابه ، وقلت له ، مختبراً إياه ـ بأبي هو وأمي ـ عن أول علامة من علامات نبوّته :

«إنكم أهل حاجة وغربة ، وقد كان عندي طعام نذرتُه للصدقة ، فلمّا ذُكر لي مكانكم ، رأيتكم أحقَّ الناس به ، فجئتكم به» .

صادق : فامتنع الرسول الكريم عن الأكل منه .

سلمان : وقال لأصحابه : «كلوا باسم الله» وأمسك هو ، فلم يبسط إليه يده ، فقلت في نفسي :

«هذه والله واحدة . . إنه لا يأكل الصَّدَقة» .

صادقة : عليه صلوات الله وسلامه .

سلمان : رجعتُ إلى بيتي ، ثمّ عدت إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الغداة ، أحمل طعاماً ، وقلت له ـ بأبي هو وأمّي ونفسي ـ :

«إني رأيتك لا تأكل الصَّدقة ، وقد كان عندي شيء أحبُّ أن أكرمك به هديّة» .

ووضعت الطعام بين يديه الشريفتين ، فقال لأصحابه :

«كلوا باسم الله» .

وأكل معهم .

صادق : فقلتَ في نفسك ـ يا سيّدي ـ : هذه هي العلامة الثانية من علامات نبوّته . . إنه يأكل الهديّة .

سلمان : ثمّ رجعتُ فمكثت ما شاء الله ، ثمّ أتيتُ رسول الله ، فوجدتُه في البقيع قد تبع جنازة ، وحوله أصحابه ، وعليه شملتان ، كان مؤتزراً بواحدة ، ومرتدياً الأخرى ، فسلّمتُ عليه ، ثمّ عدلتُ لأنظر أعلى ظهره ، فعرف أني أريد ذلك ، فألقى بُردته عن كاهله ، فإذا العلامة بين كتفيه . . خاتم النبوّة كما وصفه لي صاحبي العمّوري ، فأكببتُ عليه أقبّله وأبكي .

صادق : هنيئاً لك يا سيِّدي .

سلمان : ثمّ دعاني ـ بأبي هو وأميّ ونفسي ـ فجلستُ بين يديه ، وحدّثتُه حديثي كما أحدّثكم الآن .

فقالت صادقة وهي تمسح دموعها :

ـ ثمّ أسلمتَ يا جدّي، ونلتَ شرف صحبة النبيّ الكريم ﷺ. أمّا نحن، فلم تكتحل عيوننا برؤية النبيّ العظيم، ولا شاهدتْ خاتم النبوّة بين كتفيه الطّاهرين الشامخين.

كانت صادقة تتحدّث في تأثر شديد، انتقلت عدواه إليّ، ففرّت بضع دمعات من عينيّ، فهدّأ الصحابيّ الجليل من روعنا، وبشّرنا بأننا أحبّاء رسول الله ﷺ، وأنّنا سوف نرد عليه الحوض ـ إن شاء الله تعالى ـ وتكتحل عيوننا بمشاهدة وجهه المنير، فالمرء مع من يحبّ، ونحن نحبّ النبيّ الكريم عليه الصلاة والسلام، وسوف نكون معه بإذن الله.

بعد أن هدأت سألت سيّدي سلمان :

ـ والآن يا سيّدي، وبعد أن عشنا معك رحلة البحث عن الحقيقة، نرجو أن تحدّثنا عن حياتك الجهاديّة مع الرسول القائد عليه الصلاة والسلام.

ولكنّ صادقة اعترضتْ وبادرتْ تقول :

ـ قبل أن ندخل في معامع الجهاد، أرجو أن تشرح لي، يا جدّي العزيز، معنى خاتم النبوّة الذي رأيتَه، وكان دليلك الثالث على صدق النبوّة.

ابتسم الرجل العملاق وقال :

ـ خاتم النبوّة، يا أولادي، هو قطعة لحم بارزة حمراء عند الكتف الأيسر، عليها شعر كثيف، وهي على هيأة جُمْع الكفّ، ولكنها كالبندقة، لا تزيد عن حجم البندقة أو بيضة الحمامة.

قالت صادقة :

ـ شكراً لك يا جدّي العزيز، وأرجو أن نتلّبث مع الرسول القائد عليه الصلاة والسلام، تحدّثنا عن ذكرياتك الأثيرة مع النبيّ الكريم، وكلُّها أثيرة!.

قال الصحابيّ الجليل :

ـ صدقتِ يا صادقة . . كلّها ذكريات أثيرة وحبيبة .

وأغمض سلمان عينيه ، ورفع حاجبيه ، وسرح بفكره ثم قال :

ـ شغلني الرقُّ كثيراً عن رسول الله ﷺ ، حتى فاتني حضور غزوتي بدرٍ وأحد ، فما كان من سيِّدي رسول الله .

الجميع : صلى الله عليه وسلم .

سلمان : إلا أن أمرني بأن أكاتب .

صادق : ما معنى أن تكاتب يا سيِّدي؟

سلمان : ألا تعرفون ما معنى مكاتبة العبيد؟

صادق : لا يا سيِّدي ، لا نعرف ، لأنّ الرّقّ قد أُلغي من حياتنا منذ زمن .

سلمان : الحمد لله . . فهذا ما كان يسعى إليه الإسلام الذي عمل على تجفيف منابعه ، تمهيداً لإلغائه .

صادقة : نعمْ يا جدّي العزيز .

سلمان : قال لي رسول الله ﷺ : «كاتِبْ يا سلمان» .

صادق : يعني؟

سلمان : يعني . . اشترِ نفسك من سيِّدك .

صادق : لم أفهم .

سلمان : أنا أفهّمك . . كان العبد الرّقيق منّا يشتري نفسَه من سيّده ، يقول لسيّده : أريد تحرير نفسي من العبوديّة . . بعني نفسي . ثمّ يتّفق العبد وسيّده على مبلغ من المال يدفعه العبد لسـيّده ويصير حرّاً .

صادق : فهمتُ . .

سلمان: فكاتبتُ صاحبي.. اشتريت حرّيّتي بثلاث مئة نخلة وبأربعين أوقية من الذهب.

صادق: يا لطيف.. ومن أين لك كلُّ هذا يا سيِّدي؟

سلمان: أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يعينوني على دفع المبلغ.. قال لهم: «أعينوا أخاكم» فأعانوني بالنخل، فكان هذا يأتيني بثلاثين وَدِيّة،

صادق (مقاطعاً): عفواً سيّدي.. ما معنى الوَدية؟

سلمان: الوَدِيّة هي غصن يخرج من النخل، فيُقطع ثمّ يُغْرَس.

صادق: شكراً لك يا سيّدي.

سلمان: وكان الآخر يأتيني بعشرين وديّة، وثالث بخمس عشرة وديّة، ورابع بعشر، وهكذا حتى تجمّع لديّ ثلاثُ مئة وديّة، فقال لي رسول الله

الجميع: صلى الله عليه وسلم

سلمان: «اذهبْ يا سلمان فنقِّرْ لها (أي احفرْ لكلٍّ منها حفرة) فإذا فرغت (من الحفر لها) أكون أنا أضعُها بيدي» (أي أنّ رسول الله ﷺ، يريد أن يغرس تلك الوديّات بيديه الطاهرتين).

صادقة: وكذلك كان يا جدّي؟

سلمان: ففقَّرتُ لها، أي حفرتُ لها ثلاث مئة حفرة، وأعانني أصحابي الكرام في عملية الحفر هذه، ثم جئتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرتُه، فخرج معي إليها، فجعلنا نقرّب له الوَديَّ، ويضعه رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

سلمان: بيده الشريفة، كما كان يسقيها من دلوٍ بيده الشريفة أيضاً، فوالله ما مات منها وديّة واحدة.

صادقة: أدّيتَ النخل، وبقي الذهب يا جدّي.

سلمان: أجلْ يا ابنتي.. بقي عليّ أن أؤدّي لصاحبي أربعين أوقيةً ذهباً.

صادقة: من أين جئتَ بها يا جدّي؟

سلمان: من عند سيِّدي رسول الله ﷺ..

أعطاني رسول الله ـ بأبي هو وأمي ونفسي ـ قطعة ذهبيّة مثل بيضة الدجاجة، أتاه بها أصحابه الكرام، وقال لي:

«خذْ هذه فأدِّ بها ما عليك يا سلمان».

نظرتُ إلى تلك القطعة الذهبيّة، فاستقللْتُها، وقلت:

«وأين تقع هذه مما عليّ يا رسول الله؟».

فقال لي النبيُّ الكريم:

«خذها، فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ سيؤدّي بها عنك».

«فأخذتُها، فوزنتُ لصاحبي منها ـ والذي نفسُ سلمانَ بيده ـ أربعين أوقيّة، فأوفيتُه حقَّه، وعُتقتُ، وتحرّرتُ، وكنتُ مع رسول الله ﷺ، فشهدتُ معه غزوة الخندق وغيرها، لم يَفُتْني معه مشهد».

صادق: وصلْنا إلى مربط الفرس يا سيّدي.. نريد أن تحدّثنا عن غزوة الخندق، فقد تعلّمنا وقرأنا أنك كنتَ صاحب فكرة الخندق.

سلمان: أجلْ يا ولدي.. وسوف أحدّثكم عن هذه الغزوة التي كان اليهود والمشركون العرب يريدون بها استئصال شأفة الإسلام والمسلمين ونبيّ الرحمة معاً.

صادق: نريد التفصيل يا سيِّدي.

سلمان: كما تحبُّ يا ولدي.. فاسمعوا وعُوْا ما أقوله جيّداً..

قصد نفرٌ من زعماء يهود إلى مكة المكّرمة، في السنة الخامسة للهجرة

النبويّـة، والتقوا فيها زعماء المشركين، وألَّبوهم (حرّضوهم) على النبيّ الكريم وعلى الإسـلام والمسـلمين، وعاهدوهم أن يكونـوا معهم ضدّ المسلمين، حتى يستأصلوهم من جذورهم.

اتفقوا على أن يهاجم المشركون المدينة وأهلها المسلمين من الخارج، وأن يهاجم اليهود من الداخل، في عملية غدر عُرف به اليهود من قديم الزمان.

صادقة: والمعاهدة التي كانت بين المسلمين واليهود؟

سـلمان: اليهود لا عهد لهم ولا ذمّـة.. إنهم غدّارون، وهم بهذه الخطة الخبيثة يضعون المسلمين بين شقّي رحى.

صادق: والمسلمون؟

سلمان: ما كنّا ندري من أمر هذه الخطة الخبيثة شيئاً، حتى فوجئنا بجيش عَرَمْرَم (أي كبير) يتوجّه نحو المدينة.

صادق: كم كان عدد جيش المشركين يا سيّدي؟

سلمان: كانوا عشرة آلاف مقاتل.

صادق: من قريش؟

سلمان: بل من قريش ومن سائر القبائل العربية.. زعماء اليهود التقَوْا أولاً زعماءَ قريش، وحرّضوهم على المسلمين، وتعاهدوا على أن يكونوا معاً ضدّ الإسلام والمسلمين، ثم خرجوا إلى قبيلة غَطَفان، ودعوهم إلى قتال المسلمين، فاستجابوا لهم، ثم طافوا في قبائل العرب، ودعوهم إلى ذلك، فاسـتجابت لهم بعض القبائل، واتّعدوا وتعاهدوا وتقاسـموا وتواثقوا، ثمّ انطلقوا يستعدّون، حتى إذا كان الموعد الذي اتفقوا عليه لمهاجمة المدينة، خرجت قريش في أربعة آلاف، بقيادة أبي سفيان، وخرج بنو سليم، وخرج بنو أسد، وخرجتْ فزارة وأشجع وبنو مُرّة، وجاءت غطفان، حتى بلغ جيش الأحزاب المشركة عشرة آلاف مقاتل.

صادق: إذن سمَّوْا هذه الغزوة باسم غزوة الأحزاب، لأن المشركين

المهاجمين كانوا من عدّة قبائل؟

سلمان: وأسموها غزوة الخندق من أجل الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة.

صادقة: نعمْ يا جدّي، نحن نصغي إليك.

سلمان: لمّا سمع رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم

سلمان: بمسير المشركين إلى المدينة، استشار أصحابه فيما يفعل مع هذا الجيش الضخم المهاجم، فأشرتُ عليه بحفر الخندق.

صادق: كيف اهتديتَ إلى هذه الفكرة الرائعة يا سيّدي؟

سلمان: لمّا رأيت كثافة جيش المشركين، وقلّة عدد جيش المسلمين، علوتُ هضبة عالية، ومسحتُ أرض المعركة القادمة بناظري، فرأيت المدينة محصَّنة بالجبال والصخور والبساتين المحيطة بها من كلّ جانب، ما عدا فجوة واسعة شمال المدينة، وتذكّرت ما كان يفعل الفرس المدافعون عن مدنهم بحفر الخنادق حولها، فأسرعتُ إلى رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

سلمان: وأشرتُ عليه بحفر الخندق من تلك الجهة المَخُوْفة، وفكّر الرسول بما أشرت به عليه، ثمّ ما لبث أن اقتنع بالفكرة، وأمرَنا بحفر الخندق.

صادق: كيف تمّ حفر الخندق قبل وصول الجيش المهاجم يا سيّدي؟

سلمان: قسم النبيُّ منطقة الحفر على أصحابه، فكان لكل عشرة منا أربعون ذراعاً، وكان النبيّ الكريم يعمل معنا، يحفر ويحمل كأيّ فردٍ منا، وكنا نستعين به في تفتيت الصخور الضخمة.

صادقة: يعني. . كان الرسول القائد يحفر الخندق بيديه الشريفتين، ويحمل الأتربة والحجارة على ظهره مثلكم يا جدّي؟

سلمان: بل ربّما حفر وحمل أكثر ممّا نحفر ونحمل، وكان ينشد من شعر عبد الله بن رواحة:

لا همَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلنْ سكينةً علينا وثبّتِ الأقدامَ إنْ لاقينا
إنّ الذين قد بَغَوْا علينا إذا أرادوا فتنةً أَبَيْنا

وكنّا ننشد معه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في سعادة:

اللهمّ لا عيشَ إلا عيشُ الآخره
فارحم الأنصار والمهاجره

وكنّا نهتف ونحن نحفر ونعمل بجدّ:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

حتى انتهينا من حفر خندق عريض عميق، لا يقوى المشركون على اجتيازه، وذلك قبل وصول الجيش المهاجم من الأحزاب الكافرة.

صادقة: كان عددكم ثلاثة آلاف يا جدّي، أليس كذلك؟

سلمان: بلى يا ابنتي. . وقد عانينا الكثير من الجوع والتعب. . كنّا نعمل في النهار، ونستريح في الليل في بيوتنا، وعيون الحرس يقظى ترصد الطرقات، فقد بثَّ الرسول القائد عيونه في كل مكان.

صادقة: عليه صلوات الله وسلامه.

سلمان: وعندما حضر جيش الشرك، فوجئ المشركون بالخندق، إذ لم يكن للعرب عهد بمثل هذه الوسيلة الدفاعية، كما فوجئوا بالمسلمين وقد اتخذوا لأنفسهم مواقع خلف الخندق.

صادق: واليهود؟ ألم يكونوا اتفقوا مع المشركين على الهجوم والغدر بالمسلمين من الداخل؟

سلمان: أجلْ يا بني.. ولكنّهم جبناء، ولم يجرؤوا على مهاجمتنا، والرسول العظيم كان حاسباً حساب غدرهم، فبثّ حولهم العيون، ليأتوه بأخبارهم، وكان - عليه السلام - قد وضع نساء المسلمين وأولادهم في بيوت محصَّنة، وأمَّر عليهم عبد الله بن أمّ مكتوم.

صادقة: الأعمى؟

سلمان: الأعمى بصراً، البصير بصيرة يا بنتي.

وأذكر لكم بهذه المناسبة، أننا عندما علمنا بنقض يهود للمعاهدة، خفنا، واشتدّ الأمر علينا، وازدادت يقظة الرجال والنساء منا، وعندما أرسل يهود واحداً منهم، وراح يطيف بحصن نساء المسلمين، نزلت إليه صفيّة بنت عبد المطلب، عمّة رسول الله ﷺ، وأخت أسد الله حمزة، فقتلَتْه.

فهتفتُ أنا وصادقة:

- الله أكبر.. الله أكبر.

ثمّ تابع سيّدي سلمان يقول:

- مرّ بنا شهر كامل من الحصار، لقينا فيه ما لقينا من العَنَت، ومع ذلك، كنّا سعداء إلى جانب رسول الله ﷺ، نستمدّ من صبره وشجاعته وعزيمته ما يُعيننا على لأواء الحياة، وشدّة الحصار، وأحاط المشركون بالمسلمين حتى جعلوهم في مثل الحصن من كتائبهم، ووجَّهوا نحو منزل رسول الله ﷺ كتيبة غليظة، فقاتلها المسلمون يوماً إلى الليل، فلمّا حانت صلاة العصر، دنت الكتيبة من المنزل، فلم يقدر النبيُّ ولا أحد من أصحابه على الصلاة، فلمّا انكفأت الكتيبة المشركة من الليل، قال رسول الله ﷺ:

«شغلونا عن صلاة العصر، ملأ الله بطونهم وقلوبهم ناراً».

وزفر الصحابيُّ الجليل زفرة حَرَّى، ثم قال:

ـ فلمّا اشتدّ البلاء، بحصار المشركين من الخارج، والخوف من غدر يهود من الداخل ـ نافقَ ناسٌ كثير، وتكلّموا بكلام قبيح.

ورأى رسول الله ـ ﷺ ـ ما بالناس من بلاء وكرب، فانطلق يبشّرنا ويقول:

«والذي نفسي بيده، ليفرجنّ عنكم ما ترون من الشّدّة، وإني لأرجو أن أطوفَ بالبيت العتيق آمناً، وأن يدفعَ الله إليّ مفاتيح الكعبة، وليهلكنّ الله كسرى وقيصر، ولننفقنّ كنوزهما في سبيل الله».

فهتفتُ عالياً:

ـ الله أكبر! ما أعظمك من قائد يا سيّدي يا رسول الله!.

فتابع الصحابيُّ الجليل:

ـ كما بشّـرَنا رسول الله بالنصر، ونحن في أشدّ الأوقات العصيبـة، بعدما علمنا بغدر يهود. قال لنا النبيُّ الكريم:

«الله أكبر! أبشروا يا معشر المسلمين».

وأذكر أن فوارس من قريش، منهم عمرو بن عبد وُدّ، أقبلوا نحو الخندق، فلّما وقفوا عليه قالوا:

«إنّ هذه مكيدةٌ ما كانت العرب تعرفها».

ثم توجّهوا نحو مكان ضيّق من الخندق، فاقتحموه، وجالت بهم خيولهم، ودعـوا إلى المبارزة، فخرج البطل العظيم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لعمرو، فاستصغره عمرو واحتقر شأنه، وقال له:

«اذهبْ يا ابن أخي، فإني لا أريد أن أقتلك».

فأجابه الأسد الهصور:

«ولكني والله أريد قتلك».

فحمي عمرو، وهجم على عليّ، ولكنّ الله القويّ قتل عمراً على يَدَيْ عليّ كرّم الله وجهه. وكان عمرو من شجعان العرب وأبطالهم، فلما رآه أصحابه وقد تعفّر بالتراب مضرَّجاً بدمائه، ولّوا هاربين.. انهزموا إلى أصحابهم، وشعار المسلمين في تلك الغزوة: (حم لا يُنْصَرون) يملأ مسامعهم.

كنتُ وصادقة مشدودَين إلى حديث الصحابيّ الجليل، وكانت مشاعرنا مضطربة.. كنا نمتلئ خوفاً على الرسول القائد وصحبه الكرام حيناً، مع أننا نعرف أنّ النبيّ الكريم انتصر وأصحابه على المشركين فيها، ومرة كانت السعادة تغمر نفوسنا، ونحن نسمع أحاديث البطولة والصبر على الجوع والعطش والخوف والتعب، وأردت مخرجاً مما نحن فيه من آلام وأحزان وآمال، فسألتُ الصحابيَّ الجليل عن أجمل ذكرى له في تلك المعركة التاريخية الحاسمة، فابتسم ابتسامة عريضة وقال:

ـ برغم كلّ ما مرّ بنا ومررنا به من آلام وأحزان، فإن الذكريات الأثيرة والحبيبة إلى نفسي كثيرة، ولكنّ أروعها حديث الصّخرة.

واعتدل الشيخ الجليل في جلسته، ومسح على شفتيه ولحيته ثم قال:

ـ خلال حفر الخندق، برزتْ لنا في المكان الذي أحفر فيه صخرة عاتية، حاولت تحطيمها فلم أفلح، فقد كانت أقوى مني وممن يعملون معي في الحفر، فذهبت إلى النبيّ الكريم، وأخبرته بأمر الصّخرة، وما إذا كان من الممكن أن نتركها لنحفر أمامها أو خلفها، ولكنّ الرسول القائد العظيم ترك مكانه الذي يحفر فيه كأيّ فردٍ منا، وذهب معي، فلمّا رأى الصخرة القاسية، رفع معوله بكلتا يديه، وأمرنا أن نبتعد حتى لا نصاب بشظاياها، ثمّ سمَّى الله تعالى، وهوى بمعوله على الصخرة، فتصدّعتْ قليلاً، وبَرَقَ وهجٌ شديد أضاء جوانب المدينة، وهتف الرسول ﷺ مكبّراً:

«الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح فارس، ولقد أضاء لي منها قصور الحِيْرة،

ومدائن كسرى، وإن أمتي ظاهرةٌ عليها».

فصاحت صادقة:

ـ الله أكبر.. وأنتم في خوفكم وشدّتكم والعدوّ يحيط بكم من الداخل والخارج، يبشّركم الرسول القائد بالنصر، وبفتح بلاد فارس، والعراق، وعاصمة كسرى!.

وتابع الصحابيُّ الجليل حديثه:

ـ ثمّ رفع، عليه الصلاة والسلام، المعول ثانية، وهوى به على الصخرة، فصدّعها قليلاً، وبَرَقَ لمعانٌ شديد كالضربة الأولى، أضاء جوانب المدينة، وكبّر الرسول القائد تكبير نصر قائلاً:

«الله أكبر.. أُعطيتُ مفاتيح الروم، ولقد أضاء لي منها قصورها الحمر، وإنّ أمّتي ظاهرة عليها».

فهتفتُ إعجاباً:

ـ هنيئاً لكم هذه البُشْرَيَات من الرسول القائد، في هذا الموقف العصيب يا سيّدي.

وتابع الصحابيُّ الجليل حديثه:

ـ ثمّ ضرب الرسول العظيم ضربته الثالثة، فمزّق الصخرة وفتّتها، وأضاء برقُها الشديد جوانب المدينة مرّةً ثالثة، وكبّر الرسول العظيم وكبّر المسلمون معه، وبشّرنا أنه يبصر الآن قصور الشام وصنعاء وسواها من مدائن الأرض التي ستعلوها راية «لا إلـه إلا الله».

وأخرج الصحابيّ الجليل منديلاً نظيفاً مسح به عرقه الذي كان يتفصّد من جبينه، وكأنه كان في خندقه يحفر، ثم يراقب رسولَ الله وهو يصدّعُ الصخرة الضخمة، فاهتبلتُ الفرصة وقلت:

ـ هنيئاً لك يا سيّدي، فقد كنت صاحب فكرة الخندق، وكنت

صاحب الصخرة التي تفجّرت منها بعض أسرار الغيب، وكنت ترى بعينيك رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: وهو يهوي بمعوله على تلك الصخرة، وقد رأيتَ مع أصحابك ذلك البريق الوضّاء الذي أضاء جوانب المدينة المنورة، وهو يحمل البشرى للرسول القائد، ثمّ لكم، بفتح بلاد الفرس والروم، وبلاد العراق والشام واليمن.

سلمان: ولقد وصفَ لي رسولُ الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

سلمان: قصرَ كسرى في عاصمته (المدائن) كأنه كان يراه أمامه، وكنتُ أقول له: صدقت، إنّ هذه هي صفة القصر، وأشهد أنك رسول الله.

صادقة: هل كنتَ تعرف قصر كسرى يا سيّدي؟

سلمان: أجلْ يا ابنتي.. فلطالما رأيتُه وتأمّلته.

صادق: ثمّ ماذا يا سيّدي؟

سلمان: ثمّ قال لي الرسول العظيم عليه صلوات الله وسلامه وبركاته:

«هذه فتوح يفتحها الله عليكم بعدي يا سلمان.. لَتَفتحُنَّ الشام، ويهرب هِرَقْلُ إلى أقصى مملكته، وتظهرون على الشام، ولا ينازعكم أحد، ولَتَفتحُنَّ اليمن، ولتفتحنّ هذا المشرق، ويُقْتَل كسرى، فلا يكون كسرى بعده».

صادق: صدق رسول الله ﷺ، فما كان ينطق عن الهوى، إنْ هو إلا وحيٌ يوحى.

صادقة: وماذا تحقق من تلك البشارات في حياتك يا جدّي؟

سلمان: فُتحت الشام، وفُتح العراق، وفُتحت بلاد فارس، وصرتُ

أنا العبدَ الفقير القليل أميراً لمدائن كسرى، وقُتل كسرى، ولم يأت من بعده كسرى آخر، وفُتحت صنعاء وبلاد اليمن، وهرب هرقل قيصر الروم من سورية وهو يقول:

«وداعاً يا سورية وداعاً لا لقاء بعده».

صادق: هل تذكر لنا ـ يا سيدّي ـ حديثاً عن فضل الجهاد في سبيل الله؟

سلمان: اسمعوا ـ إذن ـ هذا الحديث الذي سمعته من النبيّ الكريم.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

سلمان: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«رباطُ يوم وليلة خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامه، وإن مات ـ المرابط في سبيل الله ـ جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجريَ عليه رزقُه، وأَمِنَ الفَتّان».

صادق: ماذا تذكر لنا ـ يا سيِّدي ـ عن قتالك في سبيل الله تعالى؟

سلمان: قاتلتُ إلى جانب رسول الله ﷺ وتحت لوائه الشريف، وشهدتُ معه المشاهد كلَّها، ما عدا بدراً وأُحُداً، لأنني كنت عبداً رقيقاً، كما قاتلتُ الخزر والترك في بَلَنْجَر وجيلان وجرجان، وكنتُ وإخواني المقاتلين، وقّافين عند تعاليم الإسلام ومبادئه في القتال.

صادق: كيف يا سيّدي؟

صادقة: يعني.. حبّذا لو ضربْتَ لنا مثالاً على ذلك.

سلمان: كنتُ ـ مرة ـ أميراً على جيش من جيوش المسلمين في بلاد فارس، وحاصرْنا حصناً من حصونهم، فقال لي أصحابي:

«يا أبا عبد الله!. ألا ننهد إليهم؟»

صادق: يريدون أن يهاجموهم؟

سلمان: نعمْ. . فقلت لهم:

«دعوني أدعُهم، كما سمعتُ رسول الله ﷺ يدعوهم» ثم ذهبتُ إلى أهل الحصن، وقلت لهم:

«إنما أنا رجلٌ منكم، فارسيّ، ترون العرب يطيعونني، فإن أسلمتم، فلكم مثلُ الذي لنا، وعليكم مثلُ الذي علينا، وإن أبيتم إلا دينكم، تركناكم عليه، وتعطوننا الجزية وأنتم صاغرون، وأنتم غير محمودين، وإن أبيتم نابذناكم على سواء».

صادق: فماذا كان جوابهم؟

صادقة: لا بدّ أنهم استجابوا لك يا جدّي.

سلمان: بل قالوا: ما نحن بالذين نعطي الجزية، ولكنّا نقاتلكم.

صادق: وقاتلتَهم يا سيّدي وانتصرتَ عليهم.

سلمان: كذلك طلب مني أصحابي أن أقاتلهم، وقالوا لي:

«ألا ننهد إليهم يا أبا عبد الله؟».

قلت: لا.

صادق: لماذا يا سيّدي؟

سلمان: لأنني يجب أن أدعوهم وأمهلهم ثلاثة أيام، ولذا دعوتهم ثلاثة أيام إلى الإسلام أو الجزية، فلما لم يستجيبوا قلت لأصحابي:
«انهدوا إليهم»

فنهدْنا إليهم، وفتحْنا ذلك الحصن.

صادقة: هل تذكر لنا، يا جدّي، شيئاً مما سمعتَه من الرسول القائد؟

سلمان: بأبي هو وأمي. . فقد قال مرّة:

«يا سلمان لا تبغضني فتفارقَ دينك».

قلت: يا رسول الله! . كيف أبغضك، وبك هدانا الله؟

قال: «تبغض العربَ فتبغضني».

صادقة: الله أكبر. . الذي يبغض العرب يبغض رسول الله ﷺ؟

صادق: كذلك فعل ويفعل الشعوبيون يا أختي صادقة. . يبغضون العرب، ويسبّونهم، منطلقين من بغضهم لنبيّ الإسلام ﷺ، ولغة القرآن.

سلمان: وقال رسول الله ﷺ:

«إنّ الله خلقَ - يومَ خلقَ السماواتِ والأرضَ - مئةَ رحمة، كلُّ رحمة طِبَاقَ ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحشُ والطيرُ بعضُها على بعض، فإذا كان يوم القيامة، أكملها بهذه الرحمة».

صادقة: على ذكر يوم القيامة. . كيف يُحاسَبُ الناس يوم القيامة يا جدّي؟

سلمان: يُحاسبون كما يُرزَقون.

صادقة: هل من حديث آخر يا جدّي؟

سلمان: عندي لكم الكثير من حديث سيِّدي رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

سلمان: ولكنّي سأذكر لكم حديثاً أو حديثين حول الدّعاء، والدّعاء مُخُّ العبادة كما تعلمان. . قال النبيّ الكريم ﷺ:

«إنّ ربّكم حَييٌ كريم، يستحيي من عبده أن يرفع إليه يديه فيردَّهما صِفْراً أو خائبتين».

فرفعتْ صادقة يديها إلى السماء وابتهلتْ:

«اللهمّ رُدَّ إلى جدّي خالي محموداً كما رددتَ يوسف إلى يعقوب».

وأمّنتُ على دعائها، كما أمَّن الصحابيُّ الجليل، دون أن يعلم من أمر خالنا محمود شيئاً، ولم نذكر له نحن أن الطغاة اختطفوه من بيته، قبل أن يتخرج في الجامعة طبيباً بأيام، ولكنَّ الصحابيّ الجليل قرأ في عيوننا الحزن فقال:

ـ وقال النبيُّ الكريم ﷺ:

«لا يردُّ القضاءَ إلا الدّعاءُ، ولا يزيد في العمر إلا البرّ».

فأكثروا من الدّعاء إلى الله في سرِّكم وعَلَنِكم تفلحوا، ويردّ الله قضاءه عنكم، وبرُّوا آباءكم وأمهاتكم، يبارك الله في أعماركم.

وفيما كان الصحابيّ الجليل يدعونا إلى الدّعاء، كانت عيوننا وقلوبنا وأيدينا تبتهل إلى الله الكريم، أن يفكّ أسْر المأسورين المسلمين، ويعيد الغائبين إلى ذويهم، وخاصة خالنا محموداً، وأن ينصر المجاهدين في كلّ مكان، ثم صاحت صادقة:

ـ اللهم دمّر الظالمين والطغاة ودمّر عليهم، ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً.. اللهمّ عليك بالطواغيت وأبنائهم وبناتهم وأصهارهم وجلاوزتهم وكلِّ من يعينهم في ظلمهم، فإنهم لا يعجزونك يا جبّار ويا قهّار ويا قاصم ظهور الجبارين الظالمين.

وأمّنّا أنا والصحابيّ الجليل على دعائها:

ـ آمين آمين آمين يا ربَّ العالمين.

وقال الصحابيّ الجليل: قال رسول الله ﷺ:

ـ «الصلاة مكيال، فمن وَفى وُفيَ له، ومن طفَّف، فقد علمتم ما قال الله في المطفّفين» صدق رسول الله ﷺ.

فعلّقت صادقة:

ـ قرأتُ، يا جدّي، أنّ سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لأحد المسلمين: «ما حبسك عن صلاة العصر؟» فذكر الرجل له عذراً، فقال أمير المؤمنين له: «طفّفت» أي أنقصت.

وقلت أنا :

ـ على ذكر سيّدنا عمر يا سيِّدي ، أحبّ أن أعرف شيئاً عن علاقتك بهذا الرجل العظيم ، رضي الله عنه وأرضاه .

ولكنْ . . وقبل أن يجيب الصحابيّ الجليل ، انبرتْ صادقةُ تقول :

ـ دعنا مع حديث الرسول القائد يا صادق ، فلعلّ جدّي يقدّم لنا حديثاً أو أكثر ، سمعه من النبيّ الكريم ، أو رواه عنه .

ابتسم الصحابيّ الجليل سلمان ، وهو يدير ناظريه في وجوهنا ، ثم قال :

ـ اسمعوا هذا الحديث الشريف :

قال رسول الله ﷺ :

«لا يغتسل رجل يوم الجمعة ، ويتطهر ما استطاع من طهر ، ويدّهن من دهنه ، أو يمسّ من طيب بيته ، ثم يخرج فلا يفرّق بين اثنين ، ثم يصلّي ما كُتب له ، ثمّ يُنْصت إذا تكلم الإمام ، إلا غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى» . صدق رسول الله ﷺ .

وعلّقت صادقة :

ـ الرجل في هذا الحديث يشمل الرجال والنساء ، والصّغار والكبار من الذّكور والإناث طبعاً يا جدّي . فالإسلام دين النظافة للجميع .

وقلت أنا :

ـ ولهذا يزداد حزني كلما شاهدت قذارةً في مسلم ، في جسده أو في ثوبه أو في بيته أو في سيارته أو في قريته ، أو في مدينته .

وقال سلمان رضي الله عنه :

ـ سوف أبقى أحدّثكم عن الصلاة ، عن عمود الدّين ، وأحذّركم من

التكاسل عنها، أو أدائها أداءً صُورياً لا روح فيها، ألا وأعلموا أنّ المسلم إذا قام إلى الصلاة، وُضعت خطاياه على رأسه، فلا يفرغ من صلاته حتى تتفرّق عنه كما تتفرّق عُذوق النخلة، تسّاقط يميناً وشمالاً.

ـ ما معنى عذوق النخلة يا سيِّدي؟

ـ عذوق النخلة يا صادق، هي غصونها المتشعّبة.

ثمّ تابع الصحابيُّ الجليل قائلاً:

ـ حافظوا، يا أولادي، على الصلوات الخمس، فإنهنّ كفّارات لهذه الجراحات ما عدا الكبائر، ثمّ إنّ الناس إذا أمسَوْا كانوا على ثلاث منازل:

فمنهم مَنْ له ولا عليه.

ومنهم مَنْ عليه ولا له.

ومنهم مَنْ لا له ولا عليه.

ـ كيف يا جدّي؟

أجاب سلمان رضي الله عنه:

ـ أنا أقول لكم كيف.

أمّا الأول، فرجلٌ اغتنم ظلمة الليل، وغفلة الناس، فقام يصلّي حتى أصبح، فذلك له ولا عليه.

ـ عظيم. والثاني؟

ـ وأمّا الثاني، فرجلٌ اغتنم غفلة الناس، وظلمة الليل، فركب رأسه في المعاصي، فذلك عليه ولا له.

ـ يا لطيف.. نعوذ بالله من شرور هذا الصّنف من الناس.

ـ والثالث؟

أجاب الصحابيّ الجليل:

ـ وأمّا الصِّنف الثالث، فرجلٌ صلَّى العشاء ونام، فذلك لا له ولا عليه.

ثمّ اعتدل الصحابيُّ الجليل في جلسته وقال:

ـ إياكم والحَقْحَقَة، وعليكم بالقصد والدّوام.

سألتُ سيِّدي سلمان عن الحقحقة فقال:

ـ أصلُ الحقحقة: السير السريع، أن يجتهد الراكب في السير، ويلحّ عليه حتى تعطب راحلته أو تقف.

فقالت صادقة:

ـ تريدنا أن نقتصد في العبادة، ولا نوغل فيها كثيراً، لأنّ المنبتّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى.

فظهر السرور في وجه الصحابيّ الجليل، وقال:

ـ أحسنتِ يا ابنتي أحسنتِ.. هذا ما أريده.. قوموا ما تستطيعون من الليل، وصوموا ما تستطيعون.

نهضت صادقة، وأقبلت على الصحابي الجليل ابن الإسلام وقالت له:

ـ أذكرتني شيئاً كنتُ نسيتُه، وأريد أن تحدّثنا عنه يا جدّي.

ـ ماذا تعنين يا بنتي؟

ـ أعني حديثك مع أختك أمّ الدَّرْداء، وأخيك أبي الدَّرْداء يا جدّي.

فابتسم سلمان ابتسامة عريضة حتى بانت نواجذه، ثم قال:

ـ زرتُ بيت أخي أبي الدّرداء، فرأيت أمَّ الدّرداء مُبْتَذِلة، أيّ كانت تلبس ثياباً رثَّة، فسألتُها عن حالها، وعن شأنها، ولماذا هي في هذه الصورة المزرية؟ فقالت:

«إنّ أخاك أبا الدرداء ليست له حاجة في الدنيا، يقوم الليل، ويصوم النهار».

فلمّا جاء أبو الدرداء، رحّبتُ به، ثمّ إنّه قرّب إليّ طعاماً، فقلت له: «كُلْ». فقال أبو الدّرداء: «إني صائم» فقلت له: «أقسمتُ عليك إلا أكلتَ، فما أنا بآكلٍ حتى تأكل».

ـ فأكلَ معك يا جدّي؟

ـ أجلْ.. أكلَ معي. ثمّ إنّي بتُّ عنده تلك الليلة، فلما كان ما كان من الليل، قام أبو الدّرداء ليصلّي قيام الليل، فقلت له: «نمْ» فنام، فلمّا كان من آخر الليل، قلت له: قم الآن. فقام، فصلّينا، ثم قلت له:

«إنّ لنفسك عليك حقاً، وإنَّ لربّك عليك حقاً، وإنّ لضيفك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. صُمْ وأفطرْ، وقمْ ونمْ، وائتِ أهلك.»

فلمّا كانت صلاة الفجر، خرجنا إلى مسجد رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

سلمان: فلمّا صلَّى النبيُّ ﷺ، قام إليه أبو الدرداء، فأخبره بما قلتُ له، وأمرتُه به.

صادق: فماذا كان جواب الرسول القائد يا سيِّدي؟

سلمان: قال له الرسول ﷺ مثلما قلت له.

صادقة: عليك يا سيِّدي يا رسول الله أفضلُ صلوات الله وسلامه.

وساد السكوت لحظة، فقطعتْه صادقة بقولها:

ـ لم تحدّثنا عن زواجك يا جدّي..

وسكتت صادقة، فقد غلبها حياؤها، واحمرَّ وجهها النقيّ، ويبدو أنّ الصحابيّ الجليل لاحظ هذا، فخفّف من وطأته عليها، ومازحني وإياها، ثم قال:

ـ والآن . . يمكنني أن أحدّثكما عن زواجي، لتحدّثوا به أقرانكم . .

واعتدل الشيخ الجليل في جلسته، ثمّ هبَّ قائماً، ثم جلس وهو يبتسم ويقول :

ـ تزوّجتُ امرأة من (كندة)، فبنيتُ بها في بيتها، فلمّا كانت ليلة البناء (أي الزّفاف) مشى معي أصحابي حتى أتيتُ بيت أمرأتي، فلمّا بلغتُ البيت قلتُ لأصحابي : «ارجعوا آجركم الله» .

صادقة : ولم تسمح لهم بالدخول معك يا جدّي؟

سلمان : أجلْ يا ابنتي . . لم أسمح لهم بالدّخول، فذلك فعلُ السّفهاء .

صادقة : ولكنّ الناس في زماننا هذا، يدخلون الرجال على النساء في الأعراس، والنساء ـ ومنهنّ العروس ـ في كامل زينتهنّ .

سلمان : هذا لأنهم غير مسلمين .

صادقة : بل هم مسلمون .

سلمان : ولكنهم لا يفهمون الإسلام، ولا يعرفون ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون من التمسك بأهداب هذا الدين الذي جاء بأرفع أنواع الذوق السليم . . هؤلاء الذين تقولين : إنهم مسلمون، سفهاء، سفهاء . . هل تعرفين ما معنى سفهاء؟

صادقة : نعمْ يا جدّي أعرف .

صادق : فهل تتابع حديث زواجك الميمون يا سيّدي؟

سلمان : فلمّا دخلتُ البيت، رأيته منجّداً . . الستائر على جدرانه . . فسألتُ أصحاب البيت : أمحمومٌ بيتكم، أم تحوّلت الكعبة في (كندة)؟

قالوا : ما بيتُنا بمحموم، ولا تحوّلت الكعبة في (كندة) .

قلت : فما بال هذه الستائر؟

قالوا : إنها للزينة . . نزيّن بها الجدران .

فأمرتُهم أن ينزعوها ، ولم أدخل البيت حتى نزعوها جميعها غير ستر الباب .

صادقة : الله أكبر .

سلمان : ثمّ لمّا دخلتُ رأيتُ متاعاً كثيراً ، فسألتُ : لمن هذا المتاع؟

قالوا : هذا متاعك ومتاع امرأتك .

قلت : ما بهذا أوصاني خليلي ﷺ . أوصاني خليلي أنْ لا يكون متاعي من الدنيا إلا كزاد الراكب .

صادقة : الله أكبر .

سلمان : ورأيتُ خدماً ، فقلت : لمن هذا الخدم؟

قالوا : هؤلاء خدمُك وخدمُ امرأتك .

قلت : ما بهذا أوصاني خليلي ﷺ . أوصاني خليلي أنْ لا أمسك إلا ما أحتاج إليه ، وليس لي بهؤلاء حاجة . . ثمّ قلت للنسوة اللواتي كنَّ عند امرأتي :

«هل أنتنّ مخلّياتٌ بيني وبين امرأتي؟ ألا تخرجْنَ؟» .

فخرجْنَ ، فلمّا خلوتُ بزوجتي قلت لها :

«هل تطيعينني في شيء آمرك به؟» .

قالت : جلستَ مجلس من يطاع .

قلت : فإنّ خليلي ﷺ أوصاني ـ إذا اجتمعت إلى أهلي ، أن أجتمع على طاعة الله عزّ وجلّ .

ثم قمتُ وقامت امرأتي معي إلى المسجد ، فصلّينا ما بدا لنا ، ثم عدنا إلى بيتنا .

صادقة: هنيئاً لك يا سيّدي بهذه المرأة الصالحة.

صادق: وأصحابك يا سيّدي؟

سلمان: لمّا أصبحتُ زارني بعض أصحابي، فسألوني: كيف وجدتَ أهلك؟

صادق: فبماذا أجبتَهم يا سيّدي؟ فكذلك الشبّان يسألون صاحبهم بعد أن يتزوج.

سلمان: أعرضتُ عنهم، فأعادوا السؤال، وأعرضتُ عنهم، ثم أعادوا السؤال مرّة ثالثة، فأعرضتُ عنهم، ثم قلت لهم:

«إنما جعل الله تعالى السُّتور والخُدور والأبواب لتواري ما فيها، حسْبُ امرئ منكم أن يسأل عما ظهر له، فأمّا ما غاب عنه، فلا يسألنّ عن ذلك. سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «المتحدّث عن ذلك، كالحمارين يتسافدان في الطريق».

صادق: صدق رسول الله ﷺ.. هل تسمح لي يا سيّدي أن أقول لك: والله إني أحبُّك في الله، وقد أحببتُك قبل أن ألقاك، وعندما لقيتُك ظننتُ أني أعرفك منذ زمن.

ابتسم الرجل الوقور ابتسامة وقارٍ عريضة، ثم قال:

ـ اسمعوا هذه الحادثة التي جرتْ معي.

كنتُ في المدائن، في بعض طرقها، وكنت أرتدي ثياباً بالية.

صادقة: وأنت أميرها؟

سلمان: وهل هذا يضير؟

وكان معي أديم (أي جلدٌ) أحمر أعركه، نظرتُ فرأيت رجلاً حسبْتُني أعرفه، فناديتُه وأنا أومئ إليه بيدي: «مكانك يا عبد الله.» فسأل الرجلُ من كان معه عني، فأخبروه عني، فيما كنت أسرعُ إلى بيتي، فلبستُ ثياباً بيضاً،

ثم أقبلتُ نحوه، وأخذت بيده، وصافحتُه، وسألتُه عن حاله، فقال لي:

«يا عبد الله.. ما رأيتَني فيما مضى ولا رأيتُك، ولا عَرَفْتَني ولا عرفتُك».

قلت: بلى.. والذي نفسي بيده، لقد عَرَفَتْ روحي روحَك حين رأيتُك، ألستَ الحارثَ بن عُميرة؟

قال: بلى. فكيف عَرَفْتَني ولم ترني قبل اليوم؟

قلت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها في الله ائتلف، وما تناكر منها في الله اختلف».

فهتفْنا أنا وصادقة:

ـ صدق رسول الله ﷺ: الأرواح جنود مجنّدة.

ثمّ قالت صادقة:

ـ ما دُمْنا في (المدائن) التي كانت عاصمة كسرى، ثم صارت إلى الإسلام والمسلمين، فهل من ذكرياتٍ أخرى كانت لك فيها؟

أجاب الصحابيُّ الجليل:

ـ الذكريات كثيرة، أذكر منها فيما أذكر.. أذكر منها.. تذكّرتُ..

جاءني الأشعث بن قيس، وجرير بن عبد الله البَجَليّ وأنا في خُصٍّ في ناحية المدائن.

قاطعتُ الصّحابيَّ الجليل وسألتُه عن معنى (الخُصّ) فأفادني بأنّه بيتٌ من قَصَبٍ، ثم تابع يقول:

ـ أتياني فسلّما عليّ، وحيّياني، ثمّ سألاني:

ـ أنت سلمان الفارسيّ؟

قلت :

ـ نعمْ .

قالا :

ـ أنت صاحب رسول الله ﷺ؟

قلت :

ـ لا أدري .

فارتابا (أيْ شكّا) في أمري ، ثم قال أحدهما للآخر :

ـ لعلّه ليس الذي نريد .

فقلت لهما :

ـ أنا صاحبُكما الذي تريدان . قد رأيتُ رسول الله ﷺ ، وجالسْتُه ، وإنّما صاحبُه مَنْ دخل معه الجنّة . فما حاجتُكما؟

قالا :

ـ جئناك من عند أخٍ لك بالشّام .

فسألتُهما : مَنْ هو؟

قالا : أبو الدَّرْداء .

فقلت لهما :

ـ فأين هديّته التي أرسل بها معكما؟

قالا :

ـ ما أرسلَ معنا بهديّة .

قلت :

ـ اتّقيا الله ، وأدّيا الأمانة . ما جاءني أحد من عنده إلا جاء معه بهديّة .

قالا:

- لا ترفعْ علينا هذا. إنّ لنا أموالاً فاحتكمْ فيها.

قلت:

- ما أريد أموالكما، ولكنْ أريد الهديّة التي بعث بها معكما.

قالا:

- لا والله ما بعث معنا بشيء، إلا أنّه قال: «إنّ فيكم رجلاً كان رسول الله ﷺ إذا خلا به، لم يبغ أحداً غيره، فإذا أتيتماه فأقرئاه مني السلام.

قلت:

- فأيَّ هديّة كنتُ أريد منكما غير هذه؟

وأيُّ هديّة أفضل من السلام تحيّةً من عند الله مباركة طيّبة؟

ابتسمنا أنا وصادقة لهذه الحكاية اللطيفة، لما فيها من معنى عظيم، ثمّ قلتُ:

- ما دام الشيء بالشيء يُذْكِر - يا سيّدي - فقد أَذْكَرَتْني حكايتُك الجميلة هذه، حكايةً مثلها، جَرَتْ في زمن أبي، فهل تسمح في أن أقصَّها عليك؟

ابتسم الرجل الجليل وقال:

- ليتك تفعل، فقد تكلمتُ كثيراً أكثر منكما معاً.

قلت:

- حدَّثنا أبي أن الشيخ محمد الحامد - رحمه الله - كان في مدينة حماة من بلاد الشام، وكان ولده محمود يطلب العلم في الكليّة الشرعية، بمدينة حلب، وكان محمود يرسل الرسائل إلى أبيه الشيخ، يطمئنه فيها عن أحواله، ويطلب منه أن يسلّم على أعمامه وأخواله وعمّاته وأقربائه وأصدقائه، وكان

الشيخ محمد عندما يقرأ رسالة ولده، ينهض من فوره، ويذهب إلى بيوت الذين ذكرهم ولده في رسالته، وسلّم عليهم، ليبلّغهم سلام ولده.

فهتفَ الصحابيُّ الجليل:

ـ الله أكبر.. هذه هي أخلاق المسلم. فمن هو هذا الشيخ؟

أجابتْ صادقة:

ـ الشيخ محمد الحامد هو شيخ مدينة حماة، ومن مشايخ سورية المعروفين بدينهم وتقواهم. وكان الشيخ شديد الورع، عالماً عاملاً، ومجاهداً ومرشداً، قلّ نظراؤه في هذه الأيام.

وقلتُ أنا:

ـ وكان الشيخ مريضاً، وكانت عليه أعباء كثيرة، وقد أشفق عليه أولئك الذين كان يأتيهم مع ورود كلّ رسالة من ولده، فأرسلوا إلى ابنه محمود يطلبون منه أن يكفّ عن إرسال سلاماته إليهم، حتى لا يكلّف أباه مشقّة التبليغ، لأنّ الشيخ كان يعدّ تبليغ السلام أمانة في عنقه، عليه أن يؤدّيها سريعاً، قبل أن يوافيه أجله الذي لا يعرف متى يأتيه، وقد يأتيه في أيّ لحظة، فكان لا ينام قبل أن يؤدّي هذه الأمانة إلى أصحابها، وقد عدَدْتَها أنت، يا سيِّدي، هدية طيّبة مباركة.

كان سلمان ـ رضي الله عنه ـ يصغي إلينا في اهتمام، وعندما رآني أتوقّف عن الحديث قال:

ـ كما قلتم: الحديث يُذْكرُ بالحديث.. دخل عليّ ـ مرّةً ـ رجلٌ وأنا أعجن.

فتساءلتْ صادقة:

ـ تعجن؟

ـ أجلْ.

ـ ألم يكن لك خادم وأنت أمير المدائن؟

ـ بلى . . كان لديّ خادم . . ولكنّكِ ، يا ابنتي ، أفسدتِ عليّ حديثي ، فقد سألني ذلك الرجل الذي دخل عليّ وأنا أعجن كما سألتِ ، واستغرب مثلما تستغربين الآن ، وقد قلتُ له :

«بعثْنا الخادم في عمل ، فكرهْنا أن نجمع عليه عملين» .

ـ الله أكبر . . فماذا قال لك الرجل؟

قال : فلان يقرئك السلام .

فسألته : متى قدمْتَ من السَّفَر؟

قال الرجل : منذ كذا وكذا يوماً .

فقلت له : أمَا إنّك لو لم تؤدّها ، كانت أمانة لم تؤدِّها .

صادقة : تعني إقراءك السلامَ يا جدّي؟

سلمان : طبعاً . . فهو أمانة .

صادقة : وماذا قال الرجل عن الخادم؟

سلمان : لم يقل شيئاً . . هكذا علَّمنا الإسلام ، وهكذا رأينا وتعلّمنا من نبيِّ الإسلام ، عليه الصلاة والسلام .

صادق : عليه الصلاة والسلام . . ولكن . . قل لي يا سيِّدي الأمير ، كيف تتفق الإمارة مع بيت من قَصَب؟

سلمان : لا تعارضَ بينهما يا بنيّ . . وانظر سيرة الرسول الكريم

الجميع : صلى الله عليه وسلم .

سلمان : فهو قدوتنا . . كان يحمل التراب والحجر على عاتقه ، وكان يحفر الخندق ، كأيّ جنديّ من جنوده ، وكان يجمع الحطب لأصحابه ، وكان يبيت هو وأهله جياعاً ، وكان ينام على الحصير فتؤثّر الحصير في جسده الطاهر ، وكان يعين زوجاته ويساعدهنّ في أعمال البيت ، فهل نَقَصَ هذا من

مقامه الشريف يا ابني ويا ابنتي؟

صادقة: معاذ الله يا جدّي.

سلمان: وكذلك كانت سيرة خليفته الصّدّيق أبي بكر، وكذلك كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن صاحبه الصدّيق. . ثمّ إنّ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال لي يوماً:

«يا أبا عبد الله. ألا أبني لك بيتاً؟»

فكرهْتُ عَرْضَه هذا، لأنني ظننت به ظنَّ السّوء.

صادق: كيف؟

سلمان: ظننتُه يريد بناء بيت لي كبيوت الأمراء، ولكنّ حذيفة فَطِنَ لما يدور في رأسي، فقال:

«رُوَيْدَكَ حتى أخبرك أني أبني لك بيتاً إذا اضطجعتَ فيه، كان رأسك من هذا الجانب، ورجلان من الجانب الآخر، وإذا قمتَ أصاب رأسَك».

صادقة: فوافقْتَه يا جدّي، وبنى لك ذلك البيت المتواضع.

سلمان: أجلْ يا ابنتي، لأن حذيفة كان في نفسي، يفكّر كما أفكّر.

صادق: رحمكم الله ورضي عنكم يـا صحابة الرسول القائد المعلّم القُدْوَة.

صادقة: ثمّ ماذا يا جدّي؟ نريد المزيد من هذا الكلام الطيِّب، لعلّ الذكرى تفيدنا وتفيد مَنْ نعايش من المؤمنين.

سلمان: ذكرتُ لكم قبل قليل، جريرَ بن عبد الله البجلي. . راقَ لي أن أنصحه، كما كنت أفعل مع غيره، لبعض الدّواعي والاعتبارات. قلت له:

«يا جرير. تواضعْ لله، فإنه مَنْ تواضعَ لله تعالى في الدنيا، رفعه يوم القيامة.

يا جرير. هل تدري ما الظُّلُماتُ يوم القيامة؟

قال جرير : لا أدري .

قلت : ظُلْمُ الناس بينهم في الدُّنيا» .

صادق : نصيحة رائعة ، كأنك تريد أن تنصحنا ، أنا وأختي صادقة ، بها .

سلمان : أجلْ يا أولادي . هي نصيحتي لكم ولسائر المسلمين ، أن يكونوا متواضعين فيما بينهم ، وأن لا يتظالموا ، فالظلمُ ظلماتٌ يوم القيامة .

صادقة : سنعمل بنصيحتك يا جدّاه ، فهل من نصيحة أخرى؟

سلمان : نعمْ . . أقلّوا من الكلام إلا في طاعة الله ، فأكثرُ الناس ذنوباً يوم القيامة ، أكثرُهم كلاماً في معصية الله عزّ وجلّ .

صادقة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقلْ خيراً أو ليصمتْ . صدق رسولُ الله .

الجميع : صلى الله عليه وسلم .

سلمان : هذا لأنّ أكثر الناس يكثرون من اللّغو والكلام الباطل ، وينصرفون عن الكلام الحقّ ، عن القرآن الكريم .

وسكت الصحابيُّ الجليل لحظة سَرَحَ فيها بروحه ، ثم عاد إلينا وأقبل علينا وقال :

ـ سمع الناس بالمدائن أنني في المسجد ، فأتوني زرافاتٍ ووحداناً ، حتى صاروا نحواً من ألف رجل ، يريدون سماعَ حديثي فأمرتهم بالجلوس فجلسوا ، ثم فتحتُ المصحف الشريف ، وانطلق لساني يقرأ سورة يوسف عليه السلام ، وإذا هم يتسلّلون من المسجد ، حتى لم يبق فيه سوى مئة منهم ، فغضبْتُ وقلت لهم :

«الزُّخْرُفَ من القول أردتم؟ فإذا ما قرأت عليكم كتاب الله ذهبتم !» .

وقلت :

«لكلّ امرىء جوّانيٌّ وبرّانيّ ، فمن يُصْلحْ جوّانيّه ، يصلح اللهُ برّانيّه ،

ومن يُفْسِدْ جوّانيَّه، يُفْسِدِ اللهُ برانيَّه».

فابتهلْنا أنا وصادقة أن يصلح الله أحوالنا وسرائرنا، وكأنّ الصَّحابيَّ الجليل قرأ في عيوننا رغبتنا في الاستزادة، فعدّل من جلسته، وتنحنح ثم قال:

- من الذكريات المفيدة لكم، أننا كنّا ذات مرّة في جيش، فقرأ رجلٌ من المسلمين سورة مريم عليها السلام، فقام رجل وسبَّها وسبَّ ابنها عليهما السلام، فانقضَّ عليه المسلمون، وضربوه حتى أَدْمَوْه، فجاءني الرجل شاكياً كأيّ مظلوم، فنهرْتُه وقلت له: ألم تسمعْ قولَ الله تعالى:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ثمّ قلت لهم.. قلت للضارب والمضروب:

«يا معشر العرب. ألم تكونوا شرَّ الناس ديناً، وشرَّ الناس داراً، وشرَّ الناس عيشاً، فأعزّكم الله وأعطاكم؟

أتريدون أن تأخذوا الناس بعزّة الله؟

والله لَتَنْتَهُنَّ أو ليأخذَنَّ الله عزّ وجلّ ما في أيديكم، فليعطينّه غيركم».

صادقة: الله أكبر.. ثم ماذا يا جدّي؟

سلمان: ثمّ طَفِقْتُ أعلّمهم، فقلت لهم:

«صلُّوا ما بين صلاتي العشاء، فإنّ أحدكم يخفّف عنه من حزنه، ويذهب عنه مَلْغاةَ أول الليل، فإن ملغاة أول الليل مهدمة لآخره».

صادقة: سأشرح ما فهمتُ يا جدّي.. صلُّوا ما بين المغرب والعشاء، فإنّ الصلاة في هذا الوقت، تخفّف من أحزان المسلم، وتمحو اللَّغْوَ من الكلام الذي يتكلم به المسلم في أول الليل، وهذا اللغو إذا بقي ولم تمحه صلاة ولا استغفار، فإنه يهدم ما يكون بعده..

أليس كذلك يا جدّي؟

سلمان: بارك الله فيك يا صادقة.

صادق: ثمّ ماذا عندك من نصائح يا سيِّدي؟ فنصائحك كالدُّرَر.

سلمان: أوصيكم بالحياء، فالحياء من الإيمان، إذا أراد الله بعبد شرّاً، نَزَعَ منه الحياء، فلا تلقاه إلا مَقيتاً مُمَقَّتاً، فإذا كان مقيتاً ممقّتاً، نُزعتْ منه الرحمة، فلم تلقه إلا فظّاً غليظاً، فإذا كان كذلك، نُزعتْ منه الأمانة، فلم تلقه إلا خائناً مخوناً، فإذا كان كذلك، نُزعتْ رِبْقةُ الإسلام من عنقه، فكان لعيناً ملعَّناً.

صادقة: يا سلام! ما أروع هذا الكلام! . زدنا يا جدّي زادك الله حكمة وعقلاً وإيماناً يرفعك مكاناً عَلِيّاً.

سلمان: أنصحكم بإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وبالصلاة في جوف الليل والناس نيام.

صادق: أراك تركّز على الصلاة كثيراً يا سيّدي!.

سلمان: لأنّ الصلاة عمود الدين، ومن تركَها هدم دينه. . ومع ذلك، اسمعوا هذه الطُّرْفة ذات المغزى العميق. .

سكت الصحابيّ الجليل هُنَيْهَة، ثم ابتسم في حزن وقال:

- ذات يوم قمتُ إلى الصلاة، وانطلقتُ ألتمس مكاناً طاهراً أصلّي فيه، فرأتني امرأة على هذه الحال، فقالت لي:

«التمسْ قلباً طاهراً، وصلّ حيثُ شئتَ».

صادقة: الله أكبر! ما أعمقَ هذا الكلام!. هذا كلام عالم فقيه.

سلمان: صدقت يا ابنتي. . هذا كلام من فقه الإسلام.

صادق: ذكر لنا أستاذنا الشيخ نايف أنّ رجلاً سأل عالماً من علماء

الإسلام، كان معروفاً بتقواه وغزارة علمه، وعمق فهمه لهذا الإسلام. . سأله الرجل عن فضل الصلاة في الصفّ الأول، فقال له العالم العامل: «أطِبْ كِسْرَتَك ـ أي طعامك ـ ثمّ صلِّ حيث شئت».

سلمان: جميل جداً هذا الفهم، وهو كفهم تلك المرأة التي حدّثتكم عنها. . إنه كلام من فقهَ هذا الدّين. . كلام المؤمن الحقّ.

صادقة: ما مَثَلُ المؤمن عندك يا جدّي في هذه الحياة الدنيا؟

سلمان: إنما مَثَلُ المؤمن في الدنيا، كَمَثَلِ مريض معه طبيبه الذي يعلم داءه ودواءه، فإذا اشتهى ما يضرّه منعه، وقال لا تقربْه، فإنك إن أصبتَه أهلكك. ولا يزال يمنعه حتى يبرأ من وجعه.

وكذلك المؤمن، يشتهي أشياء كثيرة مما فضل به غيره من العيش، فيمنعه الله إياه، ويحجزه عنه، حتى يتوفّاه الله، فيدخله الجنّة.

فرفعتْ صادقة كفّيها وابتهلتْ في خشوع:

ـ اللهمّ أدخلْنا الجنة مع الأبرار، مع جدّي سلمان، وارزقنا صحبة نبيِّك محمد في الفردوس الأعلى يا كريم.

لحظْتُ سيِّدي سلمان ساهماً حزيناً، فسألتُه عمّا به، فقد كان يحدّثنا قبل لحظات في تدفُّق ونشاط، فقال:

أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث:

ضحكتُ من مؤمّل الدّنيا والموتُ يطلبه

وغافلٍ لا يُغْفَل عنه

وضاحكٍ مِلْءَ فيه، لا يدري أمُسْخِطٌ ربّه أم مُرْضِيه؟

وأبكاني ثلاث:

(وقبل أن يتفوّه بواحدة من الثلاث، تسايلت الدُّموع من عينيه).

فِرَاق الأحبّة: محمد وصحبه.

وهَوْلُ المطلع عند غَمَرات الموت .

والوقوفُ بين يَدَيْ ربِّ العالمين ، حين لا أدري إلى النار انصرافي أم إلى الجنة .

فبادرتْ صادقة تقول في انفعال :

ـ بل إلى الجنّة يا جدّي . . إلى الجنّة . . إلى الجنّة .

وأردتُ تغيير مجرى الحديث ، لأخفّف من انفعالنا نحن الثلاثة ، فقلت :

ـ كنّا أرجأنا الحديث عن علاقتك بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه ، ذلك الرجل الرّبّاني الذي شبّهوك به في الزهد والورع والفطنة ، وباشتياق الجنّة لكلٍّ منكما . فماذا تقول يا سيِّدي؟

سلمان : ماذا عساني أن أقول في رجلٍ كعمر؟ لقد كانت صلتي به صلة الأخ الصغير المعجب بأخيه الكبير ، ولعلكم تذكرون احتجاجي عليه عندما رأيته يخطب ويأمرنا بالسمع والطاعة .

صادقة : فقلتَ له : لا سمع ولا طاعة ، لأنه كان يلبس ثوبين .

سلمان : إذنْ . . أنتم تحفظون الحادثة . .

صادقة : ونريد غيرها من الذكريات الأثيرة لديك مع أعدل حاكم عرفته الأرض يا جدّي العزيز .

سلمان : سألني أميرُ المؤمنين عمر مرّةً : أملكٌ أنا أم خليفة؟

صادقة : فبماذا أجبتَه يا جدّي؟

سلمان : قلت له : إنْ أنت جَبَيْتَ من أرض المسلمين دِرْهماً أو أقلَّ أو أكثر ، ووضعْتَه في غير حقِّه ، فأنت ملكٌ غير خليفة .

صادق : الله أكبر ! .

صادقة: وماذا كان جواب أمير المؤمنين يا جدّي؟

سلمان: كان البكاء جوابه.. بكى عمر، ولم يكن له جواب سوى البكاء.

صادقة: ما أرقَّك، وما أروعَك، وما أشدَّ خشيتَك لله يا جدّي العظيم يا أمير المؤمنين يا أبا حفص!.

سلمان: وفي السنة الخامسةَ عَشْرةَ للهجرة، فرض عمرُ للمسلمين الفروض، ودوَّنَ الدّواوين، وأعطى العطايا على المسلمين السابقين إلى الإسلام، وألحقني بأهل (بدر) مع الحسن والحسين وأبي ذر، ولم نكن حضرْناها.. خمسةَ آلاف خمسة آلاف.. وكان أهل (بدر) يأتون بعد آل النبيّ الكريم ﷺ.

صادقة: هنيئاً لك، يا جدّي، هذا المقام.. أن تُحْسَبَ في أهل غزوة بدر، وأنت لم تَشْهَدْها.

صادق: لم يَشْهَدْها سيِّدي سلمان، لأنه كان مشغولاً بالرِّقّ، كان عبداً عند ذلك اليهوديّ اللئيم.

صادقة: هذا صحيح، وإلا، كان لجدّي سلمان دَوْرٌ كذلك الذي كان له في غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق.

سلمان: وبعد معركة القادسيّة الهائلة، كتب حذيفة بن اليمان إلى عمر:

«إنّ العرب قد رقَّتْ بطونُها، وجَفَّتْ أعضادُها، وتغيَّرتْ ألونُها»

فكتبَ عمر إلى سعد بن أبي وقاص:

«أخبرْني ـ يا سعد ـ ما الذي غيَّر ألوانَ العرب ولحومَهم؟»

فكتب إليه سعد:

«إنّ الذي غيَّرهم وُخُومَةُ البلاد، وإنّ العرب لا يوافقها إلا ما وافقَ إبلَها من البُلدان».

فكتب إليه عمر :

«ابعثْ سلمانَ وحُذَيْفَةَ رائدين، فليرتادا منزلاً برّيّاً بحريّاً ليس بيني وبينكم فيه بحرٌ ولا جسر».

فأرسلنا سعدٌ، فخرجتُ حتى أتيت الأنبار، فسرتُ في غربيّ نهر الفُرات، وأنا لا أرضى شيئاً من الأرض حتى وافَيْتُ الكوفة.

وسار حذيفة في شرقيّ الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة.

صادق: هل كانت الكوفة مبنيّة يا سيِّدي؟

سلمان: الكوفةُ ـ يا بنيّ ـ هي كلُّ رملٍ وحَصْباء مختلطين.

صادق: شكراً لك يا سيِّدي، ومعذرةً لقطعي حديثَك.

سلمان: فأتينا ـ حذيفة وأنا ـ على تلك الأرض.. الكوفة.. فأعجبتنا البُقْعة، فنزلنا، وصلَّيْنا، ودَعَوْنا الله تعالى أن يجعلها منزل الثبات. ثم رجعْنا إلى سعد، وأخبرناه بما اخترْنا، فارتحل سعدٌ من (المدائن) حتى نزل الكوفة في شهر المحرّم سنة سبع عشرة.

صادق: يعني.. بعد سنة من معركة القادسية.

سلمان: أو أكثر بقليل.. بعد سنة وشهرين تقريباً.

ولمّا نزلها سعد، أعجبتْه، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر:

«إني قد نزلتُ بالكوفة منزلاً فيما بين الحيرة والفرات، وخيَّرتُ المسلمين بينها وبين المدائن، فمن أعجبه المقام في المدائن، تركتُه فيها كالمسلحة».

صادقة: ووافقَ المسلمين جوُّها يا جدّي؟

سلمان: أجلْ يا ابنتي.. لما استقرّ المسلمون فيها، عرفوا أنفسهم، ورجع إليهم ما كانوا فقدوا من قوّتهم.

صادق: معنى هذا، أنك حضرتَ معركة القادسيّة يا سيِّدي.

سلمان: وكنتُ فيها داعية المسلمين ورائدهم والحمد لله.

صادق: هنيئاً لك يا سيِّدي قتالك تحت لواء الرسول القائد ﷺ، وإشارتك عليه بحفر الخندق، وقتالك في سائر الميادين الأخرى.

صادقة: تذكّرتُ الآن ما قاله لنا الشيخ نايف من أنّك ـ يا جدّي ـ أشرتَ على الرسول القائد ﷺ باستخدام المنجنيق في حصار الطائف، ثم إنك نَصَبْتَ المنجنيق بيديك.

سلمان: ومع هذا، استمرّ حصارنا للطائف بضعة وعشرين يوماً.

صادقة: وقال لنا الشيخ نايف: إنك أوّل من أطَّمَ الأُطُمَ في بلاد العرب.

صادق: أنا سمعتُ هذا الكلام من الشيخ نايف، ولكني أسفْتُ لأني لم أسأله عن معناه، كما أسفتُ لعدم تسجيلي واستيعابي لكلّ ما حدَّثنا به عنك يا سيِّدي.

صادقة: أنا سألتُ الشيخ نايف عن معنى (أطَّمَ الأُطُمَ) وأجابني، وكنتَ أنت تنظر إليه، ولكن.. يبدو أنّ عقلك لم يكن معك يا صادق.

صادق: كثيراً ما يحدث لي هذا.. فهل تشرحين لي معناها؟

صادقة: بسيطة.. أطّمَ الأطم، يعني علّى البناء ورفعه طبقة فوق طبقة.

صادق: شكراً لك يا أختي.

صادقة: هل أتعبناك يا جدّي؟

سلمان: بل أعدتم إليّ شبابي وحيويّتي بنشاطكم، وإقبالكم على العلم

صادق: إذنْ أمضيتَ أياماً مع البطل العظيم سعد بن أبي وقّاص يا سيّدي؟

سلمان: ويا لها من أيام، ويا له من رجل.

صادق: حدِّثنا عن بعض ذكرياتك معه يا سيِّدي.

سلمان: سأحدّثكم عن أعجب عبور في التاريخ، عبره المسلمون بقيادة سعد، وكنت معه.

صادقة: هاتِ يا جدّي العزيز.

نهض الصحابيّ الجليل فنهضْنا معه، ثم جلس فجلسنا لجلوسه، ثم تنحنح وتحرّك ذات اليمين وذات الشمال كأنه يستعدّ لخوض معركة، ثمّ قال:

ـ بعد معركة القادسية، اقتحم المسلمون (بهرسير) في شهر صفر سنة ستّ عشرة، وطلبْنا السُّفن، فلم نقدر على شيء منها، فقد أخذها الفرس كلَّها إلى شاطئهم، فاضطررنا إلى الإقامة ببهرسير أياماً من شهر صفر، وكان المسلمون يلحّون على سعد بالعبور إلى الفرس، وسعدٌ يأبى عليهم ذلك، حرصاً على حياتهم، حتى جاءه بعض الفرس، ودلُّوه على مخاضة يخوض منها نهر دجلة إلى صلب الوادي، ولكنّ سعداً أبى وتردّد أيضاً.

ثمّ إنّ رجلاً من الفرس جاء سعداً وقال له:

«ما الذي يَحْمِلُك على الإقامة هنا؟ ويَزْدَجِرْدُ ملك الفرس يجمع كنوزه وأمواله، ولن تمضي ثلاثة أيام حتى يهرب بها إلى عُمْق بلاد الفرس».

ونام سعدٌ وهو مشغول البال، يفكّر في أمر عبور نهر دجلة، فرأى رؤيا: أنّ خيول المسلمين تقتحم النهر، وتعبُر دجلة وهو في فيضانٍ عظيم.

وأفاق سعدٌ من نومه، وقد عزم على عبور دجلة، تحقيقاً لرؤياه، فجمع الناس، وخطب فيهم، فحمد الله وأثنى عليه، وصلَّى على نبيّه عليه الصلاة والسلام، ثم قال:

«إنّ عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ـ يعني نهر دجلة ـ فلا تَخْلُصُون

إليه معه، وهم يَخْلُصُون إليكم إذا شاؤوا، فيناوشونكم في سُفُنهم، وليس وراءكم شيءٌ تخافون أن تُؤْتَوْا منه، فقد كفاكموهم أهل الأيام، وعطّلوا ثغورهم، وأفنَوْا ذادَتَهم.. وقد رأيتُ من الرأي أن تبادروا جهادَ العدوّ بنيّاتكم، قبل أن تحصركم الدنيا. ألا إني قد عزمتُ على قطع هذا البحر إليهم».

صادقة: وفرح المسلمون بهذا القرار الشجاع الذي طال انتظارهم له.

سلمان: وقاد البطل العظيم عاصم بن عمرو التميمي كتيبة الأهوال، وعبَر بها النهر.

صادق: لماذا سُمِّيتْ كتيبة الأهوال يا سيِّدي؟

سلمان: لأنها خاضت الأهوال.. تصوَّروا.. ستّ مئة فارس يخوضون على ظهور خيولهم نهر دجلة، وهو في أوج فيضانه، لينتزعوا مدائن كسرى من المجوس، وهم لا يعرفون شيئاً عمّا يمكن أن يكون العدوُّ قد أعدَّ لهم، دفاعاً عن عاصمتهم وعن ملكهم يزدجرد.

صادق: وعبرْتَ النهر فيمن عبره يا سيِّدي؟

سلمان: أجلْ يا بني.. كنتُ قرينَ سعد.. كنت وسعداً نطوي مياه دجلة.. وأنا أحبُّ سعداً في الله، وكنت وأنا أقطع النهر مع سعد، أتذكر حديث الحبيب محمد ﷺ:

«إنّ المسلم إذا لقي أخاه، فأخذ بيده، تحاتَتْ عنهما ذنوبُهما، كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وغفر لهما، ولو كانت ذنوبُهما مثلَ زبَدِ البحر».

صادقة: صدق رسول الله ﷺ.

صادق: هذا ما كنتَ تحدّث به نفسك، فبماذا كان القائد سعدٌ يحدِّث نفسَه؟

سلمان: الله وحده الذي يعلم السرَّ وما هو أخفى من السّرّ، ولكني

سمعتُه يقول، وخيولُنا تَعُوم بنا، قاطعةً لُجَّة النّهر:

«ذلك تقدير العزيز العليم. حسبُنا الله ونِعْمَ الوكيل. واللهِ لينصُرَنَّ الله وليَّه، ولَيُظْهِرَنَّ الله دينَه، وليهزمَنَّ الله عدوّه، إن لم يكن في الجيش بغيٌ أو ذنوبٌ تغلب الحسنات».

صادقة: هل علّقْتَ على كلام سعدٍ يا جدّي؟

سلمان: قلت لسعد، والخيول تسبح بنا، ونحن نتحدّث على ظهورها، ونبتهل إلى الله أن ينصرنا على عدوّنا. قلت أطمئن سعداً على المسلمين:

«الإسلام جديد. وقد ذلّلَ الله البحور للمسلمين، كما ذلَّلَ لهم البرّ. أما والذي نفسُ سلمان بيده، ليخرجُنّ من النهر أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً».

صادق: ثمّ ماذا يا سيّدي؟ لا بدَّ أنّ الله استجاب لكلامك، فنجا المسلمون.

سلمان: ثمّ انتصرنا على حامية الفرس التي كانت تحمي الشواطئ، واقتحمنا عاصمة كسرى، حتى انتهينا إلى إيوان كسرى، دُرّة الدّيار الفارسيّة، ورمز عزّتها، ومركز قوّتها.. وقف سعدٌ أمام الإيوان وقرأ قول الله تعالى:

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ـ٢٨].

وأحاط جيش المسلمين بالقصور، وتقدّمتُ إلى مَنْ بقي فيها من الفرس، فقلت لهم بلغتهم الفارسية:

«إني منكم في الأصل، وأنا أرقُّ لكم، ولكم في ثلاث أدعوكم إليها:

أن تُسْلموا فتكونوا إخواننا، لكم ما لنا، وعليكم ما علينا.

وإلاّ.. فالجزية.

وإلاّ نابذْناكم على سواء، إنّ الله لا يحبّ الخائنين».

وأمهلتُهم ثلاثة أيام، ليتشاوروا فيما بينهم، فلمّا كان اليوم الثالث، رضوا بدفع الجزية، والدُّخول في ذمّة المسلمين وحمايتهم، ثم خرجوا من القصر، ودخله سعد، فصلَّى في الإيوان صلاةَ الفتح.

صادقة: ما معنى صلاة الفتح يا جدّي؟

سلمان: يصلّيها المسلمون فُرادى، لا تُصلَّى جماعة، وهي ثماني ركعات متصلات لا يفصل بينهنّ فاصل.. اتخذ سعدٌ الإيوان مصلًّى، وإن فيه تماثيل من الجصّ للرجال والخيل والصُّوَر المتنوعة.

صادقة: وما أزالها؟

سلمان: أجلْ يا صادقة.. ما أزالها ولا حرّكها من مكانها، بل تركها على حالها، وصلَّى وصلّى المسلمون.

صادقة: ما أروعَ سماحة الإسلام!

سلمان: وأتمَّ سعدٌ صلاته، وصلَّى بالناس صلاة الجمعة، لأنه نوى الإقامة، وكانت أول جمعة في العراق.

صادق: ثمّ ولاّك أميرُ المؤمنين إمارة المدائن يا سيِّدي؟

سلمان: لله درُّ عمر.. فلطالما كنت أفرّ من الإمارة، وأوصي أصحابي بالفرار منها، وعندما كان يستشيرني أحد الرجال في قبول الإمارة، كنتُ أقول له:

«إن استطعتَ أن تأكل من التراب، فكُلْ منه، ولا تكونَنَّ أميراً على اثنين، واتّقِ دعوة المظلوم والمضطرّ، فإنها لا تُحْجَب».

صادقة: كأنك، يا جدّي، تريد أن تربط بين الإمارة وبين دعوة الظلوم والمضطّر، وكأنك تريد أن تقول: كم من المظلومين بين الناس لا تلحظهم عين الإمارة، وكم من المضطرين بين الرعيّة، تُغلق دونهم أبواب الإمارة.

سلمان: هذا لأنّ الإمارة في الدّنيا تَبعاتٌ وملامة، وفي الأخرى حسرة وندامة.

صادق: ولكنّ أمير المؤمنين عمر كان في حاجة إلى والٍ مثلك، يا سيِّدي، لتكون عوناً له في إقامة العدل بين الناس.

سلمان: الذي حصل، أنّ أمير المؤمنين ولّاني إمارة المدائن، فأَبَيْتُ، فأصرّ عمر، وأصررتُ، ثم نزلتُ على رأي الخليفة، فما ينبغي لمثلي أن يعصي مثل عمر، رضي الله عنه وأرضاه من حاكم تقيٍّ ورعٍ عادل.

صادقة: وكان فيما قاله لنا الشيخ نايف، أنك، يا جدّي، ذهبتَ إلى المدائن على ظهر حمارك، فريداً وحيداً، لا يصحبك جند ولا حُرّاس، وكنت تلبس قميصاً قصيراً ضيّقاً، كان قد ارتفع حتى بلغ قريباً من ركبتيك، وكان الصّبيان يسيرون وراءك، فلمّا زجرهم أحد المسلمين، وأمرهم أن يتنحَّوْا عن الأمير، قلتَ له:

«دعهم، فإنما الخيرُ والشرُّ بعد اليوم».

صادق: هل حزنتَ لمفارقة الأرض المقدَّسة، والإقامة في المدائن يا سيِّدي؟

سلمان: أذكَرْتَني شيئاً كنتُ ناسيَه..

أرسل إليّ أخي أبو الدَّرْداء يقول: «هلمَّ إلى الأرض المقدَّسة».

فكتبْتُ إليه:

«إنّ الأرض لا تقدس أحداً، وإنما يقدِّس الإنسانَ عملُه، وقد بلغني أنك قد جُعِلْتَ طبيباً ـ أي قاضياً، وكان عمر عيّنه قاضياً في دمشق ـ فإن كنتَ تُبْرِئ، فنِعِمّا لك، وإن كنتَ متطبِّباً (أي تتعاطى علم الطبّ وأنت لا تعرفه معرفة جيدة) فاحذرْ أن تقتل إنساناً فتدخل النار».

صادقة: الله أكبر، ما أروعَ هذا الكلامَ!.

صادق: ليس أروعَ منه إلا صاحبُه.

صادقة: أراك تكثر من الحديث عن أبي الدَّرْداء يا جدّي، ونحن نحبّ سماعَ المزيد من ذكرياتك معه، فهلاّ ذكرْتَ لنا بعضها؟

ابتسم الصحابيُّ الجليل ابتسامة عريضة رائعة، ثمّ قال:

ـ سأروي لكم هذه الطّرْفة، ففيها فائدة.. اسمعوها وافهموها جيّداً..

طلبتُ من أخي أبي الدَّرْداء أن يذهب ليخطب لي امرأةً من بني ليث. فدخل أبو الدرداء إلى أهل المرأة، فذكر لهم فضلي ـ أستغفر الله، أنا أروي رواية ـ وذكر سابقتي في الإسلام، وما إلى ذلك، ثمّ قال لهم: إني جئتكم خاطباً ابنتكم له.

صادقة: فرحَّبوا بهذا الخطيب.

سلمان: بل رفضوا تزويجها لي، وقالوا لأبي الدرداء:

«أمّا سلمان فلا نزوّجه، ولكننا نزوّجك أنت يا أبا الدرداء».

صادق: فتزوّجها؟

سلمان: أجلْ يا أولادي.. تزوّجها ثم خرج فقال لي:

«إنه قد كان شيءٌ وأنا أستحيي أن أذكره لك».

قلتُ: وما ذاك؟

فأخبرني الخبر.

صادق: فغضبْتَ يا سيِّدي منه، واتّهمْتَه.

سلمان: أهذا ظنُّك بجدِّك صاحبِ رسول الله ﷺ وتلميذه وابن الإسلام؟.

صادق: أستغفر الله يا جدّي. ولكنْ.. لو حصل مثلُ هذا الأمر معي،

لغضبتُ، وقاطعتُ الذي فعله، حتى لو كان من أحبِّ الناس إليّ، وأقربهم من نفسي وقلبي.

صادقة: هذا تصرُّفُك أنت ابن القرن الخامس عشر، ولن يكون هذا تصرُّفَ تلاميذ الرسول القائد.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: هل تُكْمل لنا الحديث يا سيّدي؟ ماذا تصرّفْتَ مع أخيك أبي الدرداء الذي أرسلتَه ليخطب لك امرأة، فذهب وخطبها لنفسه.

سلمان: إنه لم يخطبها لنفسه، هم خطّبوها له. على أيِّ حال، قلت لأخي أبي الدّرداء الذي كاد يقتله الحياء وهو يروي لي ما حدث:

«أنا أحقُّ أن أستحيي منك أن أخطِبها، وقد قضاها الله لك».

صادق: الله أكبر! خَطَرَ لي كلُّ معنى إلا هذا المعنى الهائل يا سيِّدي.

صادقة: نحن الآن على أبواب شهر الخير والبركات، شهر رمضان المبارك، فهل لك، يا جدّي، أن تنفحنا نصيحة نستفتح بها هذا الشهر العظيم؟

سلمان: اسمعوا يا أولادي.

خَطَبَنا رسولُ الله ﷺ في آخر يوم من شعبانَ قال: «يا أيُّها النّاس!. قد أظلَّكم شهرٌ عظيم مبارك، شهرٌ فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر. شهرٌ جعل الله صيامه فريضة، وقيامَ ليله تطوُّعاً، مَنْ تقرَّبَ فيه بخَصلة من الخير، كان كمنْ أدَّى فريضةً فيما سواه، ومن أدَّى فريضةً فيه، كان كمنْ أدَّى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهرُ الصّبر، والصَّبْرُ ثوابُه الجنّة، وشهرُ المواساة، وشهرٌ يُزاد في رزق المؤمن فيه، مَنْ فطَّرَ فيه صائماً، كان مغفرةً لذنوبه، وعِتْقَ رقبته من النار، وكان له مثلُ أجره، من غير أن يَنْقُصَ من أجره شيء».

قالوا: يا رسول الله!. ليس كلُّنا يجد ما يفطِّر الصّائم.

فقال رسول الله ﷺ:

«يعطي الله هذا الثَّوابَ مَنْ فطَّرَ صائماً على تمرة، أو على شَرْبة ماء، أو مَذْقَة - أي شَرْبة - لبن. وهو شهرٌ أوّلُه رحمة، وأوسطُه مغفرة، وآخرُه عِتْقٌ من النار. مَنْ خفَّفَ عن مملوكه فيه، غفر الله له، وأعتقه من النار، فاستكثروا فيه من أربع خِصَال: خَصْلتين تُرْضُون بهما ربَّكم، وخصلتين لا غِنى بكم عنهما؛ فأما الخصلتان اللتان تُرْضون بهما ربكم، فشهادةُ أنْ لا إلـه إلا الله، وتستغفرونه. وأمّا الخصلتان اللتان لا غِنى بكم عنهما، فتسألون اللهَ الجنة، وتعُوذُون به من النار. «ومن سقى صائماً سقاه الله من حوضي شَرْبةً لا يظمأ حتى يدخل الجنة».

صادقة: الله أكبر. ما أعظمَ هذا الحديثَ الشريف!. سيكون هذا الحديثُ زادَنا في شهر رمضان إن شاء الله، فشكر اللهُ لك ياجدّي.

صادق: بماذا تنصح أهل الابتلاء والمحن ياسيِّدي؟

سلمان: اسمع يا بنيّ.

إنّ الله تعالى يبتلي عبده المؤمن بالبلاء ثم يعافيه، فيكون كفارة لما مضى، فيستعتب فيما بقي، وإنّ الله عزّ وجلّ يبتلي عبده الفاجر بالبلاء ثم يعافيه، فيكون كالبعير، عَقَلَه أهلُه ثم أطلقوه، فلا يدري فيمَ عَقَلُوه حين عقلوه، ولا فيمَ أطلقوه حين أطلقوه. فما على المؤمن المبتلى إلا أن يصبر، فالصبرُ والاحتساب خيرٌ له عند الله وعند نفسه، لأنّ الصّبر من الإيمان، وهو يرفع المؤمنَ درجات ودرجات.

ثم إنّ رسول الله ﷺ قد تعجَّبَ من أمر المؤمن حين قال:

«عجباً لأمر المؤمن، إنّ أمْرَه كلَّه له خير؛ إن إصابتْه سَرّاءُ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرّاءُ صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن».

صادق: الحمد لله على نعمة الإيمان والإسلام.

صادقة: وماذا تقول لأولئك الأغنياء يا جدّي؟

سلمان: أقول لهم: اتّقوا الله في أموالكم، وفي أنفسكم، وفي أهليكم، وفي فقراء المسلمين.. حذارِ من الكسبِ الحرام.. حذارِ من البخل.. حذارِ من منع الفقراء والمساكين والمجاهدين وطلبة العلم من حقِّهم في تلك الأموال.. طهّروا أموالكم بالزكاة والصَّدقات، واعلموا أنّ الإسلام ليس ضدّ الغِنى، ما دام من الكسب الحلال، لأنّ النفس إذا أحرزتْ رزقَها، اطمأنّتْ، وتفرّغتْ للعبادة، وأيسَ منها الوَسْواسُ الخنّاس.

صادقة: والآن.. وبعد أن أطلْنا عليك يا جدّي العزيز، اسمح لي أن أروي لك ما سمعناه - أنا وأبي وإخوتي - من أستاذنا الشيخ نايف عن وفاتك يا جدّي يا ابن الإسلام.

قال لنا الشيخ نايف: إنك عمّرتَ كثيراً.. منهم من يزعم أنك عشت مئتين وخمسين سنة، ومنهم من يزعم أنك عشت ثلاث مئة وخمسين سنة، وأنك أدركتَ بعض تلاميذ السيّد المسيح عليه السلام.

سلمان: ثم ماذا يا صادقة؟

صادقة: وقال لنا الشيخ نايف: إن أخاك سعد بن أبي وقّاص - رضي الله عنه - دخل عليك في مرض وفاتك.. جاء يَعُودُك، فوجدك تبكي. فقال لك:

«ما يبكيك يا أبا عبد الله، بعد أن علمتَ أنّ رسول الله ﷺ توفي وهو عنك راضٍ؟ وتلقى أصحابك، وتَرِدُ على الحوض؟».

سلمان: فقلتُ له: والله ما أبكي جَزَعاً من الموت، ولا حرصاً على الدّنيا، ولكنّ رسول الله ﷺ عَهِدَ إلينا عهداً فقال:

«لتكنْ بُلْغَةُ أحدكم من الدّنيا مثلَ زادِ الراكب».

وأنتَ ترى حولي هذه الأساود (أي الأفاعي والحيّات).

صادقة: فنظر سعدٌ، فلم يَرَ إلا إكافاً (أيْ بَرْذَعَةَ الحمار) ووِطاءً (أي فراشاً) ومِطْهَرَة، أي أنَّ كلَّ ما تركتَه، يا جدّي، قوَّموه بعشرين درهماً.

صادق: ولكنكم أبناء الإسلام، وتلامذة سيِّد الزاهدين في هذه الحياة، تلامذة الرسول القائد المعلّم محمد ﷺ.

صادقة: ثمّ قال لك سعد:

«يا أبا عبد الله! اعهدْ إلينا بعهدٍ، فنأخذ به بعدك».

سلمان: فقلتُ له:

«يا سعد! اذكر الله عند همِّك إذا هممتَ، وعند حُكْمك إذا حكمْتَ، وعند بَذْلك إذا قَسَمْتَ».

ثم قلت لامرأتي:

«ما فعلْتِ بالمسك الذي جئنا به من (بَلَنْجَر)؟»

قالت: هو ذا.

فقلت لها: «ألقيه في الماء، ثم اضربي بعضه ببعض، ثم انضحي الماء حول فراشي، فإنه الآن يأتينا قوم ليسوا بإنسٍ ولا جنّ».

صادقة: ففعلتْ زوجتُك ما أمرْتَها به، وخرج عُوّادك عنك، ثم عادوا إليك، فوجدوك قد قُبضتَ إلى جنات عَدْنٍ يا جدّي، ثم واروْا جُثمانك الطاهر في مثواه الأخير في (سلمان باك) التي كانت تُدعى (المدائن) في أيامكم، على نهر دجلة، قُرْبَ مدينة بغداد، وكان ذلك سنة ستٍّ وثلاثين من هجرة سيِّدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

المصادر والمراجع

١ ـ اللؤلؤ والمرجان، لمحمد فؤاد عبد الباقي .

٢ ـ السيرة النبوية، لابن هشام .

٣ ـ السيرة النبوية، لابن كثير .

٤ ـ زاد المعاد، لابن القيم .

٥ ـ المواهب اللدنيّة بالمنح المحمدية، للقسطلاني .

٦ ـ حلية الأولياء، لأبي نعيم .

٧ ـ صفة الصفوة، لابن الجوزي .

٨ ـ العقد الفريد، لابن عبد ربه .

٩ ـ الأعلام، للزركلي .

١٠ ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير .

١١ ـ القادسية، لأحمد عادل كمال .

١٢ ـ سقوط المدائن، لأحمد عادل كمال .

١٣ ـ حياة الصحابة، للكاندهلوي .

١٤ ـ رجال أنزل الله فيهم قرآناً، لعبد الرحمن عميرة .

١٥ ـ رجال حول الرسول، لخالد محمد خالد .

١٦ ـ الرحيق المختوم، للمباركفوري .

* * *